أشكال العنف في الوسط المدرسي وعلاقته بالتسرب المدرسي

أ. حياة بن عروس-جامعة الجزائر2
أ. مونية زوقاي-جامعة البليدة

مـقـدمـة :

يعتبر العنف المدرسي من أهم المواضيع التي تشغل حيزا كبيرا في مواضيع الباحثين بعلم الاجتماع وعلوم التربية وذلك لتأثيرها الكبير على شخصية التلميذ من جهة وعلى المحيط العام والمجتمع من جهة أخرى، فالمؤسسة المدرسية إنما نشأت لمساندة الأسرة ولخدمة أهدافها ومواصلة عملية التنشئة الاجتماعية السوية التي ترقى بالمجتمع ككل، لكن ما إن يحدث خلل بين العلاقات الاجتماعية في هذه المؤسسة (التلميذ–الأسرة–المعلم–الإدارة) إلا ويؤدي إلى ظواهر اجتماعية مختلفة، أهمها وأخطرها ظاهرة " العنف المدرسي" الذي يعد من أكبر المشاكل التي تعاني منها الكثير من المدارس في كل مراحل التعليم العام ، وعليه أصبح من الضروري الاهتمام بدراسة العنف المدرسي كظاهرة اجتماعية، ذلك لأنه يؤدي إلى ظاهرة " التسرب المدرسي" المنشرة في الكثير من دول العالم في الوقت الحاضر خاصة في الدول النامية، والتي تنجم عنها آفات اجتماعية خطيرة تهدد كيان المجتمع.

ولقد برزت ظاهرة "العنف المدرسي" في المجتمع الجزائري بشكل متزايد وملاحظ إلى حد ما في الآونة الأخيرة، ولقد قدمت لهذه الظاهرة تفاسير مختلفة كلا حسب وجهة نظرته انطلاقا من أبعاده السياسية، الثقافية، الاجتماعية، الاقتصادية ....الخ، لكن كل هذا مرتبط بنظرة جزئية تبتعد عن التحليل العلمي والموضوعي للظاهرة، فالتغييرات الكبرى التي شهدها المجتمع الجزائري في السنوات الأخيرة والتي مست كل الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية منها، أثرت على الأنماط السلوكية التي أصبحت تتجه نحو خرق القوانين وأطر المرجعية المتحكمة في أفعال الفاعلين الاجتماعيين.

إن التسرب المدرسي مشكلة عالمية تعاني منها كذلك الجزائر مما ينعكس سلبا على المخرجات العلمية والتعليمية والتنمية الشاملة ومن هنا جاء إشكال هذه الدراسة الميدانية التي تسعى للتركيز على دراسة علاقة أشكال العنف المدرسي بالتسرب الدراسي لدى فئة من المتسربين خلال مرحلة التعليم المتوسط في ولاية البليدة وعليه فالتساؤل الرئيسي الذي يطرح نفسه: ماهي علاقة أشكال العنف المدرسي (الرمزي–اللفظي–الجسدي) بالتسرب الدراسي؟

-أهمية الدراسة:

تكتسي هذه الدراسة أهمية بالغة إذ تسلط الضوء على علاقة أشكال العنف المدرسي بالتسرب الدراسي لدى فئة من المتسربين خلال

المرحلة المتوسطة، وتكمن أهمية هذه الدراسة في مساعدة المعلمين في كيفية التعامل مع التلاميذ العنيفين في القسم، ومن جهة أخرى فهو موضوع تربوي يدخل في صلب العملية التربوية التعليمية إذ يساهم في محاولة إيقاف التدهور المعرفي لدى الناشئ نتيجة العنف المدرسي، والذي يؤدي إلى التسرب الدراسي وما ينتج عنه من ارتباك في بنية المجتمع حيث يساهم في تفاقم ظاهرة البطالة والأمية وعدم اندماج الأفراد في التنمية الشاملة.

-أهداف الدراسة:

-محاولة تحليل ظاهرة العنف المدرسي من وجهة نظر سوسيوثقافية.

- إبراز علاقة أشكال العنف المدرسي بالتسرب الدراسي.

- معرفة دوافع العنف داخل المؤسسات التربوية من خلال ما نلاحظه ونسمعه ونقرأه عن تفشي ظاهرة العنف المدرسي.

- دراسة العوامل المختلفة التي تؤدي إلى العنف والتسرب في الوسط المدرسي.

-الرغبة في الوقوف على أسباب التسرب المدرسي.

- معرفة الأسباب التي تقف وراء تزايد انتشار سلوك العنف المدرسي.

- محاولة إيجاد سبل الوقاية والعلاج لظاهرة العنف المدرسي والتسرب الدراسي.

-ماهية العنف:

يعرف العنف بأنه استخدام القوة المادية لإلحاق الأذى والضرر بأشخاص أو ممتلكات[1]. ويعرف خليل أحمد خليل العنف بأنه السلوك الذي يستخدم الأذى باليد أو اللسان أو بالفعل أو بالكلمة في الحقل التصادمي[2] .

- أشكال العنف:

يتخذ سلوك العنف لدى الأفراد والجماعات أشكالا متعددة وبمستويات متفاوتة من الشدة، ويمكن تصنيفها كالأتي:

- **العنف الجسدي:** ويكون بالضرب والرفس وشد الشعر والعض وإيذاء الآخرين والتخريب والاعتداء على الممتلكات والقتل وإيذاء الذات أو الانتحار.

- **العنف اللفظي:** ويكون بالشتم والقدح والتهديد والتوبيخ وإهانة الآخرين.

- **العنف الرمزي:** ويكون بتحقير الآخرين، والاستهزاء والسخرية بهم والحرمان المادي والعاطفي والنفسي والاجتماعي والنبذ والإهمال والتفرقة والتمييز وإيقاع الظلم وعدم المساواة.[3]

-تعريف العنف المدرسي:

[1] -مصلح الصالح، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار عالم الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، 1999، ص586.

[2] - خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الاجتماعية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995، ص281.

[3] -محمد العكور، الدليل الوقائي لحماية الطلبة من العنف والإساءة، إدارة التعليم العام وشؤون الطلبة، الأردن،2006،ص8.

هو كل تصرف يؤدي إلى إلحاق الأذى بالآخرين وقد يكون الأذى جسميا أو نفسيا فالسخرية والاستهزاء من الفرد وفرض الآراء بالقوة وإسماع الكلمات البذيئة جميعها أشكال مختلفة لنفس الظاهرة[4]. وهو سلوك عدواني لفظي نحو شخص أخر يقع داخل حدود المدرسة[5].

فالعنف هو جميع التصرفات القولية والفعلية التي تؤدي الى إيذاء الآخرين ونبذهم وتهديديهم والاعتداء عليهم وعلى ممتلكاتهم في المدرسة بهدف إعلان السيادة وفرض السيطرة.

يستعمل مفهوم العنف المدرسي غالبا في مجلات العدالة والتربية وعلم الاجتماع وعلم النفس والسياسة ولهذا السبب يجد الباحثون أنفسهم أمام مفاهيم عديدة للعنف العائلي والعنف الاجتماعي والعنف السياسي والعنف المدرسي.

ويرى الباحثون والخبراء أن مفهوم العنف المدرسي يستعمل لوصف مجموعة من الأفعال والأحداث والسلوكات ولكنهم لم يصلوا إلى إجماع حول طبيعة ومجال العنف المدرسي فهناك من يرى أن العنف المدرسي يجب قياسه من خلال السلوكات العدوانية التي تحدث في المدرسة بينما يرى آخرون أن قياس العنف المدرسي يجب أن يتم من خلال السلوكات التي تؤدي إلى اعتقال وجروح فقط[1].

ويعرف شيلدر: العنف المدرسي بأنه: السلوك العدواني اللفظي والغير لفظي نحو الشخص الآخر يقع داخل الحدود المدرسية[2].

ويمكن تعريف العنف المدرسي أيضا على أنه جملة من الممارسات(الايذائية) البدنية أو النفسية والإجرائية أحيانا التي تقع على الطلبة من قبل معلميهم، أو من بعضهم البعض في المدرسة[3].

ويمثل العنف المدرسي الشكل الأخطر من أشكال العنف، كونه بين وجهين للعنف، الوجه المجتمعي، والوجه المؤسساتي، فهو عنف يمارسه أفراد المجتمع بشكل جماعي داخل إطار مؤسساتي وهي المدرسة بجميع المستويات التعليمية لإشاعة ثقافة عنف داخل إطارهم المؤسساتي، مما يمنح عملية إشاعة ثقافة العنف المدرسي قبولا ومشروعية اجتماعية داخل المجتمع، لأنها تؤطر رسميا وشعبيا من خلال أخذها للطابع الرسمي المؤسساتي وقبولها وشرعيتها الاجتماعية داخل الإطار ذاته.[4]

---

[1]–صباح عجرود، التوجيه المدرسي وعلاقته بالعنف في الوسط المدرسي حسب اتجاهات تلاميذ المرحلة الثانوية، رسالة ماجستير في علم النفس،2007.

[2]– Linda shildler: Teacher sanctioned violence ,childhood Education ,spring,2001 , p167

[3]–أديب عبد الله النوايسة، تعديل سلوك الفرد والاسرة والمدرسة والحياة، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص118.

[4]– غزوان هادي، ثقافة العنف المدرسي في العراق بين عهدين، العراق، جريدة الصباح العراقية، العدد824، 2006 ،ص2

[4] –منصور بن عسكر، العنف في المدارس، بحث مقدم الى الندوة العلمية المنعقدة في الرياض، مركز الدراسات والبحوث الأكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 2003، ص4.

[5]– حويتي أحمد، ورقة عمل مقدمة حول العنف والمجتمع بأعمال الملتقى الدولي، جامعة بسكرة، 2003 ،ص37.

تعريف العنف الجسدي(البدني):

ويقصد به السلوك الجسدي المؤذي الموجه نحو الذات أو الآخرين، ويهدف إلى إيذاء أو خلق الشعور بالخوف ومن أمثلة ذلك الضرب، الدفع، الركل، شد الشعر، العض، إن هذا الشكل من العنف يرافقه في الغالب نوبات الغضب الشديد وفي الغالب يكون موجه ضد مصدر العنف والعدوان[5]. فالعنف الجسدي بناء على ما سبق يتضح أنه كل ما يؤذي الإنسان بدنيا نحو الذات أو الآخرين ويصل الأمر إلى الخوف وهذا هو جانب الأمر الناتج عن ممارسة العنف والإيذاء البدني الفعلي[6].

تعريف العنف اللفظي:

كما هو واضح من المفهوم إنه عنف يهدف إلى إيذاء الآخرين عن طريق الكلام والألفاظ والنبذ والتحقير دون استخدام العنف الفعلي. العنف اللفظي هو التهديد باستخدام العنف البدني والجسدي أو غيرها من الأنواع التي تلحق الضرر بالآخرين وذلك دون استخدام العنف الفعلي ونجد إن هذا النوع من العنف عادة ما يسبق العنف البدني ،فالإنسان هنا يعد في محاولة للكشف عن قدرات وإمكانيات الآخرين وذلك قبل الإقدام على العنف البدني[1].

تعريف العنف الرمزي:

يدل هذا العنف على البعد عن أنواع العنف الجسدي أو اللفظي المباشر حيث يهدف إلى استخدام طرق تعبيرية أو رمزية تعبر في مضمونها عن محاولة التهديد أو النبذ واحتقار الآخرين، وتشير خولة أحمد يحي إلى أن العنف الرمزي يشمل التعبير بطرق غير لفظية عن احتقار الأفراد والأخرين أو توجيه الإهانة لهم كالامتناع عن النظر إلى الشخص الذي يكن العداء له أو الامتناع عن تناول ما يقدم له، أو النظر بطريقة ازدراء وتحقير[2].

– العوامل المسببة للعنف المدرسي:

إن العوامل المسببة لعنف التلاميذ يمكن إجمالها في ما يلي:

–عوامل اجتماعية: وقد حددت الأسباب الاجتماعية للعنف في:

- وجود وقت فراغ كبير وعدم استثماره ايجابيا.
- ضعف الضبط الاجتماعي.
- ضعف التشريعات والقوانين المجتمعية.
- انتشار أفلام العنف بكثرة.
- التدريب الاجتماعي الخاطئ أو الناقص ويظهر ذلك في المجتمعات التي تتناقض مع القيم والأهداف بصورة ملحوظة.
- الجزاءات الضعيفة سواء بالنسبة للامتثال أو الانحراف تؤدي إلى خلق حالة متميعة عن الأفراد، إضافة إلى ذلك ضعف الرقابة يؤدي إلى

[5] –أحمد يحي خولة، الاضطرابات السلوكية والانفعالية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2000 ص181.

[6] – محمد أحمد الخريف، معجم المصطلحات الاجتماعية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1994، ص 16.

[1] –نفس المرجع،ص17.

[2] – أحمد يحي خولة، المرجع السابق، ص182.

النتيجة نفسها فقط يكون الجزاء شديد ولكن القائم على تنفيذه لا ينفذه بدقة.

• سهولة التبرير، ويحدث هذا عندما تحاول جماعة التقليل من حدة الاعتداء على المعيار أو تلتمس له الأعذار ويتم ذلك بشكل إرادي من بعض الأفراد بقصد التخريب الاجتماعي.

• عدم وضوح المعيار حيث يؤدي ذلك إلى بلبة في الأفكار والاتجاهات وخاصة عندما يعني المعيار بالنسبة لفردين أو أكثر شيئا مختلف.

• قد تتناقض نواحي الضبط الاجتماعي فتتجمد القواعد القانونية ولا تساير التغير الاجتماعي والثقافي في الوقت الذي يتطور فيه المجتمع بصورة تعطل فاعلية هذه القواعد وتجعلها عقيمة.

-عوامل أسرية:

- الخلافات الزوجية والصراع بين الزوجين.
- ارتفاع عدد أفراد الأسرة صغارا وكبارا في غرفة واحدة.
- إقامة كافة أفراد الأسرة صغارا وكبارا في غرفة واحدة.
- صراع الأدوار الاجتماعية والنموذج الأسري المتسلط.
- المعاملة التمييزية ضمن الأسرة.
- التنشئة الاجتماعية النمطية للذكور والإناث.
- التفكك الأسري.
- التدليل الزائد من الوالدين.[1]

-عوامل مدرسية:

• مجموعة من الأسباب تعود إلى المؤسسة التربوية نفسها، تصميم المؤسسة أو بنائها وازدحام الفصول الدراسية ونقص المرافق الضرورية وقلة أو انعدام الخدمات.

• مجموعة الأسباب التي ترجع على المعلمين من ذلك كثرة الغيابات عن الحصص وتعويضهم بمعلمين أخرين لا يخاف منهم الطلاب، ومن ثمة خروج التلاميذ على النظام داخل الصف وسلوكيات بعض المعلمين التي قد تكون غير لائقة.

• مجموعة من الأسباب التي تعود إلى التلاميذ أنفسهم، ومن ذلك التنشئة الاجتماعية التي مر بها الطفل وتعاطي المخدرات، الشعور بالظلم ومخالطة أقران السوء، وسهولة حصول التلميذ على السلاح.

• أسباب تربوية كالاستعمال أساليب غير مناسبة وتطبيق مناهج ومقررات دراسية قديمة لا تفي بمطالب العصر وعدم وجود لجان تربوية لمتابعة التلاميذ ونقص البرامج الثقافية والترفيهية.

• مجموعة الأسباب الأمنية، من ذلك عدم وجود رجال أمن في المؤسسات بصورة كافية أو قلة تدريبهم.[2]

---

[1]- عزت الطويل، سيكولوجية العنف في عالمنا المعاصر الأسباب والعلاج،http2003 في
el: azayem .com/new-page-46.htm.//

• تأثير التحصيل الدراسي على التلاميذ في الكثير من الأحيان نحترم الطالب الناجح فقط ولا نعطي أهمية وكيانا للطالب الفاشل تعليميا حسب نظرية الدوافع فالإحباط هو الدافع الرئيسي من وراء العنف إذ أنه بواسطة العنف يتمكن الفرد الذي يشعر بالعجز أن يبث قدراته الخاصة، فكثير ما نرى العنف ناتج عن المنافسة والغيرة.[3]

-أسباب إعلامية:

فالتلفزيون على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر أحد الوسائل الإعلامية التي لها تأثيرا كبيرا على سلوكيات الطلاب إضافة إلى ما قد يرد من خارج البلاد من بث إعلامي عن طريق القنوات الفضائية وشبكات الانترنيت والتواصل الاجتماعي وما تحمله هذه البرامج من مثيرات لها أثرها الكبير في نفوس الطلاب وسلوكياتهم ويتضح ذلك من خلال:

• التركيز على جوانب الاستهلاك مما ادى إلى زيادة التطلعات المادية والاستهلاكية في ضل ضعف واضح في الإمكانيات.

• استثارة نوازع الطلاب والطالبات من خلال ما تقدمه البرامج من مادة إعلامية حافلة بالإثارة والعنف.

• ضعف كفاءة البرامج الدينية والتثقيفية مما حدّ من قدراتها على جذب اهتمام الطلاب.

-واقع العنف في الجزائر:

أكد مدير مخبر التغير الاجتماعي بجامعة أبو القاسم سعد الله -الجزائر 2-، نور الدين حقيقي للجزائر نيوز أن 40%من التلاميذ يتميزون بسلوك عدواني يدفعهم إلى ممارسة العنف بمختلف أشكاله وفقا لنتائج الدراسة التي أعدها المخبر حول العنف في الوسط المدرسي، بينما تحتل الجزائر حسب الباحثين الصدارة في قائمة بلدان المغرب العربي من حيث نسبة العنف المسجل في الوسط المدرسي.

وقال أيضا مدير مخبر التغيير الاجتماعي على هامش أشغال الملتقى الأول حول الشباب والعنف في الوسط المدرسي في بلدن المغرب العربي أن 60% من التلاميذ تعرضوا للعنف من طرف الأساتذة بينما تقدر نسبة التلاميذ الذي يمارسون العنف بـ 40%وما يلاحظ أن العنف ينتشر لدى التلاميذ الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة والعائلات التي توفر لأبنائها متطلبات الحياة بحيث تقدر نسبتهم بـ35% لعدة أسباب من بينها النزعة الفردانية والأنانية التي يكتسبها الطفل من الاسرة إثر عملية التنشئة الاجتماعية بينما تسجل نسبة أقل بالنسبة لتلاميذ الذين ينتمون إلى طبقات اجتماعية أدنى تعاني الفقر والحرمان عكس المجتمعات الغربية التي يستعمل فيها العنف في هذه الطبقة وأكد المشاركون في الملتقى أن نسبة العنف المسجلة في الوسط المدرسي في كل من تونس وليبيا والمغرب والجزائر متقاربة إلا أن

[2]-عبد الرحمان العيسوي، سيكولوجية الطفولة والمراهقة، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1997، ص38.

[3]- سوسن شاكر مجيد، العنف والطفولة دراسات نفسية، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008، ص280.

الجزائر تحتل الصدارة مقارنة بهذه الدول ويرجع ذلك إلى تضافر عدد من العوامل ذات الصلة بالمعطيات الاجتماعية على غرار العامل الديمغرافي والعامل الاقتصادي، والنظام التربوي المعتمد، والتفاوت الاجتماعي، دون إغفال المؤثرات الأخرى والتي تتعلق بالدور الذي تلعبه وسائل الإعلام حيث تعكس الدراسات التي أجريت حول تأثير الرسوم المتحركة أنها تعمل على تعزيز السلوك لدى التلميذ الذي يحاول في فترات معينة من سنة تقليد ما يراه. وعكست إحصائيات وزارة التربية الوطنية المطبقة عن الدراسة التي أعدتها حول العنف في المحيط المدرسي عن اتساع رقعة العنف بالمؤسسات التربوية بالجزائر حيث فاق عدد الحالات المسجلة 45ألف حالة ووصل عدد حالات العنف المسجلة خلال السنة الدراسية 2010- 2011 إلى 3543 حالة عنف بين تلاميذ الابتدائي وأكثر من 13000 حالة عنف في الطور المتوسط و أكثر من 3000 حالة في التعليم الثانوي وتكشف الإحصائيات خلال نفس السنة الدراسية عن وجود 201 حالة عنف من قبل تلاميذ الابتدائي ضد المعلمين والفريق التربوي، و2899 حالة عنف في المتوسط ضد الأساتذة فقد تم تسجيل 1942 حالة عنف في الأطوار الثلاث، وكشفت الدراسة عن تسجيل 521 حالة عنف بين الأساتذة أنفسهم.

ويساهم المحيط الاجتماعي والمحيط الخارجي للمؤسسات التربوية على انتشارها بينما حصلت ممثلة وزارة التربية الوطنية لطيفة رمكي خلال عرضها لإحصائيات وزارة التربية الوطنية نسبة التلاميذ الذين يتعاطون المخدرات في1%وهي نسبة ضئيلة على حد قولها دون أن تنفي خطورة تسجيل تعاطي التلاميذ للمخدرات في الوسط المدرسي والتي يتم ترويجها في شكل حبات حلوى، وكشفت ذات المتحدثة عن المخطط الاستراتيجي الوقائي الذي تسعى وزارة التربية لتجسيده للحد من هذه الظاهرة قائلة أنه من الخطأ أن نحمل وزارة التربية مسؤولية انتشار هذه الظاهرة لوحدها نظرا لوجود العديد من العوامل التي تساعد على تفشي هذه الظاهرة في الوسط المدرسي ، وقللت ذات المتحدثة من خطورة تفشي هذه الظاهرة بتأكيدها على أن نسبة العنف الممارس في المدارس لا تتعدى1% بالرغم من أن أعلى نسبة تسجل في الطور المتوسط مستدلة ب 30000 حالة عنف في الفترة الممتدة مابين2003 و2004 وتشمل الدراسة التي أعدتها وزارة التربية الوطنية بالتنسيق مع المصالح المعينة كل أشكال العنف الممارس وبالرغم من اعتراف وزارة التربية الوطنية بظاهرة العنف في الوسط المدرسي إلا أن الإحصائيات التي عرضتها كانت محل انتقاد من قبل المشاركين.

-تعريف التسرب المدرسي:

يعرفه السعود والضامن بأنه " انقطاع الطالب عن المدرسة انقطاعا تاما وتركه لها بعد أن يلتحق بها سواء حدث هذا الانقطاع بعد الالتحاق مباشرة أو في صف من صفوف المدرسة قبل استكمال الفترة المقررة للمرحلة التعليمية التي سجل فيها[1] ".

[1]- السعود والضامن،1990، ص80

ويعرفه عابدين "هو ترك مقاعد الدراسة بشكل كلي قبل إنهاء أي مرحلة تعليمية من سلم التعليم العام"[2].

وعرف كاندال[3] (1968) التسرب الدراسي بأنه ترك الدراسة قبل إنهاء مرحلة معينة من التعليم او ترك الدراسة قبل نهاية المرحلة المقررة.

ويقصد المطوع(1987) بالتسرب بأنه انقطاع الطالب انقطاعا كاملا عن الدراسة وتركه لها قبل استكمال الفترة المقررة للمرحلة المسجل بها[1].

ويعرف التسرب المدرسي على أنه ترك الطالب للدراسة خلال سنوات تعلمه طبعا هذا لا يشمل الوفاة أو إنهاء الدراسة والتخرج.[2]

وتعرف منشورات اليونسكو المتسرب بأنه التلميذ الذي يترك المدرسة قبل نهاية السنة الاخيرة من المرحلة الدراسية التي سجل فيها.[3]

ويرى فهمي أن الطفل المتسرب هو (التلميذ الذي دخل المدرسة وأمضى بها بعض الوقت تم تركها إتمام تعلمه بها دون أن يتابع دراسته في مدرسة أخرى أي أن التسرب يعني الانقطاع الكامل عن مواصلة التعليم.[4]

والتسرب الدراسي: هو انقطاع الطالب عن الحضور لفترات متقطعة أو بصفة دائمة قبل التخرج وعدم العودة للدراسة نهائيا.[5]

- أنواع التسرب:

- **تسرب الطلبة من الالتحاق بالمدرسة الابتدائية:** هو من أخطر أنواع التسرب لأنه يعني الجهل والأمية. لا سيما في ضل غياب قوانين إلزامية التعليم وهو يعني تدني معدلات التحاق الأطفال الذين بلغوا السن القانونية للالتحاق بالصف الأول الأساسي وذلك حسب عوامل اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها.[6] وعلى الرغم من الجهود التي تبذل من قبل الدول النامية للحد من هذا النوع من التسرب الدراسي إلا أن هذه الجهود تصطدم بواقع الأعداد البشرية الهائلة التي تتسرب قبل التحاقها بالمدرسة.[7]

- **تسرب التلاميذ من المدرسة قبل وصولهم إلى نهاية المرحلة:** وهذا النوع من التسرب يتطابق

---

[1]-الحمدان جاسم محمد، تسرب الطلبة الكويتيين من التعليم العام الحكومي، المجلة التربوية، الكويت، العدد الثالث والستون،2002، ص105.

[2] - Brimer.M.A and Pavlik. Wastage in Education.unesco.paris.1971.p15

[3] - Decos Higle: School dropout. Enrollment and graduation rates in California. Californian research bureau.p.l.2005

[2]-عابدين محمد،2001، ص316

[3]- المهنأ ابراهيم عبد الكريم، عوامل التسرب الدراسي لدى المنحرفين، مطابع مؤسسة اليمامة الصحفية ، الرياض، العدد الثاني والعشرون،2001، ص22

[4]- فهمي محمد سيف الدين، اقتصاديات التسرب، بحث مقدم إلى حلقة تسرب التلاميذ .جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجزائر،1972،ص02.

[5] - Micheal.j.frank: negative social experiences and propping Qvt of school. Educational psychology.E2001.p407.

[6] - دائرة الإحصاء المركزية الفلسطينية، كتاب الإحصاء التربوي السنوي، سلسلة الإحصاءات التربوية، فلسطين، الرقم الثاني، 1996.

[7] -حجي أحمد إسماعيل، الإدارة التعليمية والإدارة المدرسية، دار الفكر العربي، القاهرة،1992، ص392.

مع مفهومه الذي يعني انقطاع التلميذ عن الدراسة في مرحلة معينة. وأكثر الأنواع انتشارا، ولعل هذا يشير إلى العلاقة الوثيقة بين التسرب والرسوب إذ أن رسوب التلميذ في نهاية المرحلة يدفعه إلى التسرب أو أنه قد يعيد تلك السنة إلا أنه يرسب فيها، وبالتالي فأنه يتسرب قبل نهاية المرحلة، بالإضافة إلى هذا فإن هناك ترابط إحصائي بينهما إذ أننا لا يمكن أن نحسب التسرب في صورة دقيقة قبل حساب الرسوب.[1]

– **التسرب المرحلي:** وهو النوع الثالث من أنواع التسرب والذي يظهر في نهاية كل مرحلة من المراحل التعليمية حيث لا يتقدم بعض الطلاب لامتحان إتمام شهادة المرحلة العامة وكذلك الذين يرسبون في هذا الامتحان.[2]

–أسباب التسرب الدراسي:

1–الأسباب التربوية:

حتى ينشأ الطفل نشأة سليمة صحيحة ولا يحس بالتناقض بين المدرسة والأسرة يجب أن يكون هناك تقارب وتوازن بين البيئتين، ولعل هذا التباعد بين المدرسة ومحيطها يعتبر من أهم الأسباب المؤدية إلى العزوف عن المدرسة، والانقطاع عنها كلية، فالدراسات والبحوث تميل إلى التأكيد على أن المدرسة عبر نظامها وبنيتها ومقرارتها لا تكمل النموذج الأسري.

– **المدرسة:** هي مؤسسة وجدت لتكوين وتنمية قدرات المتعلم الفكرية والجسدية والوجدانية عن طريق ما يتلقاه من علوم ومعارف ومهارات متنوعة مما يزيده قوة وقدرة وتوازنا عاطفيا ووجدانيا يمكّنه من أداء وظيفته في الحياة المدرسية. فالمدرسة لا تنجح في عملها إلا إذا أدت وظيفتها وربطت بين عمليتي التربية والتعليم. ان انقطاع الصلة بينهما ينتج عدم التكيف وصعوبة مسايرة الدروس وهذا ما يؤدي إلى التسرب كما أن الجو المدرسي المشحون الذي يسوده الصراع بين الأطراف، والتسلط والإهمال يولد الحقد ويؤدي إلى الفشل والكسل وبالتلاميذ إلى التشرد والهروب من هذا الجو المدرسي.

–**المنهاج الدراسي:** إن البرامج والمضامين لا تراعي حاجات التلاميذ كلها ويدخل في هذا الجانب ظروف التمدرس وخصائص المتمدرس، وأساليب التقويم فهي مجتمعة تؤثر على الجو العام للتربية وكان لها أثرا في التسرب. هذه البرامج البعيدة عن واقع التلميذ، لا تعود عليه بالنفع، اضافة إلى ذلك كثافتها وعدم تبسيطها ليكون الطرح سهلا وشيقا وابتعادها عن التنويع، وزيادة على ذلك الحجم الساعي الكبير الذي يحرم التلميذ من التمتع بفترة راحة زيادة إلى تقليد أنظمة تربوية أجنبية دون مراعاة معطياتنا البيئية والاجتماعية والاقتصادية. فأصبحت منظومتنا حقل تجارب لغيرنا وحتى تكون ناجعة يجب تكييفها مع واقعنا المعيش، لذا ففشل المناهج في تحقيق الأهداف يؤدي حتما إلى فشل المنظومة التربوية.

[1]–مجلة التوثيق التربوي، المملكة العربية السعودية،2000، ص133.

[2] –عيوش ذياب، دور العائلة في منع التسرب، مجلة شؤون تربوية، فلسطين، العدد الثاني عشر،1995،ص53.

-**المعلم:** للمعلم دور كبير وفعال في قبول ورفض التلميذ للمدرسة، فلابد أن يكون المعلم محبا لتلاميذه مراعيا خصائصهم النفسية والعقلية والاجتماعية. فكلما كان محبوبا من طرفهم كانت المادة الدراسية سهلة لتقبلها من طرفهم وبذلك يجب عليه أن يحرص على الذهاب إلى المدرسة ليستمتع بعمله، أما إذا كان متسلطا وقاسيا معهم فسوف يكون الوضع منعكسا.

إن التفاعل بين الطرفين يلعب دورا كبيرا عند الطفل فطريقة الدرس المملة التي تفتقر لعنصر التشويق تعد عاملا من عوامل التسرب حيث يتولد عنها سلوكات خاطئة واستعمال العنف، مما يسبب هروبهم وعزوفهم عن المدرسة.

-**التقويم غير السليم:** يعتبر التقويم أساس العملية التربوية وهو اتجاه جديد في التربية والكثيرون يظنون أن التقويم هو الاختبار أو الامتحان ولكنه جزء منها فهو يشمل المدرسة والمناهج والوسائل والمواقيت والمعلمين فهو يهدف إلى:

- تحديد مدى سرعة نمو التلميذ نحو الأهداف التي تسعى إليها المدرسة.
- تشخيص مواطن القوة والضعف في العملية التعلمية.
- مساعدة التلميذ في معرفة مستواه.
- مساعدة الأولياء في التقرب من أبنائهم وفهم ميولاتهم وإمكانياتهم.[1]

2-الأسباب الاجتماعية:

-العلاقات الاجتماعية المضطربة:

تعد العلاقات الأسرية أساسا في تكوين أسرة سعيدة متماسكة، فالوضع السيئ وسوء المعاملات الأسرية من حيث الفقر وانخفاض الدخل من شأنه أن يؤثر على تماسك الأسرة وتكاملها لما يعترضها من تجارب قاسية والتي يكون لها تأثير كبير على أفراد الأسرة الواحدة ومن مظاهر التفكك الأسري:

-الطلاق:

يعتبر الطلاق من أهم العوامل المؤدية إلى التفكك الأسري ، فيحرم الطفل من العديد من الحاجيات كالعطف والرعاية والتوجيه، والتعرض لكافة التجارب القاسية نتيجة تأرجحه بين والدين متعارضين مما قد يؤدي إلى نتائج تعليمية سلبية والنفور المدرسي.

-تعدد الزوجات:

كلما كثر العدد كثرت المشاكل والمتاعب، فالحياة في ظل تعدد الزوجات وكثرة الأولاد مليئة بالخلافات فيتولد عنها إهمال الأطفال وعدم مراقبتهم والاهتمام بهم وقد تعرضهم لترك الدراسة والانحراف.

-الإهمال بأشكاله المختلفة:

قد يختفي العائل من حياة الأسرة هربا من مسؤولياتها التي لا يستطيع تحملها وتلبيتها بسبب البطالة أو انخفاض الدخل وقد يكون الإهمال لكثرة

[1]- سعد بن محمد علي الهميم، الخصائص الاجتماعية للمتسربين دراسيا، رسالة ماجستير، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض،2010، ص 31.

الأبناء حيث تفوق حاجاتهم القدرة الشرائية للوالد وفي كلتا الحالتين يتعرض الطفل إلى الإهمال خلقيا وبدنيا مما يسهل الطريق نحو التسرب [2].

-قسوة المعاملة: التي تنعكس على نفوس الأطفال بطرق مباشرة أو غير مباشرة في أسلوب القسوة حينا والإهمال حينا آخر من طرف الأولياء، بسبب أو لأسباب تافهة نتيجة الحالة النفسية التي يعاني منها الوالدين، هذا الجو المشحون يدفع الصغار إلى الهروب من المدرسة، وانتهاج سلوكات عدوانية كالسرقة والاعتداء على الآخرين وقد تصل القسوة بالأولياء إلى عدم تسجيل الأطفال بالمدارس ،ويتم توجيههم مباشرة لعالم الشغل لمساعدة الأسرة حيث كشف تحقيق ميداني أنجزه مرصد حقوق الطفل سنة 2007 حول تشغيل الأطفال، وجود 2979 طفل عامل أعمارهم بين أربع وسبعة عشرة سنة ينشطون في مجالات بيع السجائر والرعي وأخطرها المتاجرة بالمخدرات[3].

-الظروف البيئية والسكنية:

إن رداءة طرق المواصلات في المناطق النائية وقسوة المناخ يضطر كثير من الأولاد إلى ترك الدراسة كما أن وجود بعض التجمعات السكنية في المدن أدى إلى ازدحام الصفوف وضعف الاتصال بين البيت والمدرسة وبالتالي إلى ازدياد حدة التسرب[1].

3- الظروف الاقتصادية:

هناك مجموعة من المواطنين في الريف خاصة لا يسمح دخلها بالاستغناء التام عن أولادها في العمل رغم صغر سنهم، فضعف الحالة المادية للتلميذ وأسرته من أكبر المشكلات التي تحول بين توافق التلميذ وتفوقه في الدراسة حيث أن الجانب المادي له ارتباط وثيق بالتحصيل العلمي.[2]

-مستوى الدخل: إن عدم اهتمام الأب بالتلميذ من حيث تأمين اللباس الجيد والمناسب يولد لدى التلميذ شعورا بالنقص والحرمان فينزوي عن زملائه، وبالتالي يسبب له كرها كبيرا للمدرسة.

ونجد بعض الأسر نظرا لضعف دخلها تعجز عن تحمل شراء اللوازم المدرسية وبعض المتطلبات مما يجعلها تلجأ إلى استخدام الأبناء في العمل، وإجبار الفتيات عل الزواج المبكر.

-الوضع المعيشي للأسرة:

وهو الذي ينتج عنه عدم قدرتها على توفير متطلبات الحياة لأفرادها والذي يؤثر تأثيرا سلبيا على التحصيل الدراسي، ويتمثل في:

---

[1] – علي رسلان، مشكلة التسرب في المدرسة الابتدائية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ط1. 1973، ص55

[2] – حكمت عبد الله البزاز، بني جانيت البزار، التسرب في التعليم، دار الجاحظ للطباعة، والنشر، بغداد، ط1. 1975، ص133.

[2] –مجلة التوثيق التربوي، المرجع السابق، ص 133.

[3] – إبراهيم عبد الكريم المهنا، عوامل التسرب الدراسي لدى المنحرفين، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، العدد 92 ،2002، ص15.

- حرمان البدن من حاجياته الضرورية بالتغذية الذي ينتج عن ضعف في الشخصية. فقلة الغذاء وسوء التغذية لها آثار على الحالة الانفعالية والاضطرابات الشخصية لان الإحساس بالأمن يبنى أساسا على إشباع العضوية.

- سوء الأحوال السكنية وازدحام السكن غير الصحي وغير المريح لا يساعد على النمو السليم للشخصية بدنيا ووجدانيا وعقليا. واجتماعيا فقد تكون له آثارا مباشرة على تنشئته، ويعرف المسكن غير الصحي أنه ضيق، رطب، مظلم وغير كاف لا يوفر الراحة ولا يشبع حاجة الطفل من نوم أو جلوس مريح أو لعب.

4-الأسباب الثقافية :

وهي ما يعرف بالمؤشرات الفكرية والتكنولوجية التي تحيط ببيئة التلميذ وتؤثر في اتجاهاته ومخرجاته السلوكية وإضفاء نمط معين من التفكير والتصرف حسب المستوى الثقافي، ويعد هذا الأخير مؤشر ودليل عن التقدم والتطور إذا ارتقى، أما إذا كان عكس ذلك فهو مؤشر عن التخلف والانحطاط. إن انتشار الأمية لدى بعض الأسر بحيث لا تتوفر لديهم اتجاهات وسلوكات لتشجيع أبنائهم على ممارسة التعليم، كما أنّ ضعف المؤثرات الثقافية وانعدامها في البيئة المحيطة بالتلميذ والتي تتمثل في المكتبات والنوادي الثقافية تؤدي به أيضا الى التسرب من المدرسة.

-المستوى الثقافي للمحيط الأسري:

المحيط البيئي الذي يعيش فيه التلميذ من العوامل المؤثرة على تحصيل التلميذ خاصة المستوى الثقافي[1] للأسرة، فالأولياء ذوي المستوى الثقافي المنخفض، لا يستطيعون في أغلب الأحيان أن يوفروا الرعاية التعليمية الكافية لأبنائهم التلاميذ، بل قد لا يهتمون لحياة أبنائهم الدراسية.

يقول جون روبين (j.ROUBIN) بخصوص هذا .... أما بالنسبة للمستوى الثقافي باعتباره أحد عوامل التسرب للتلميذ، فإنه يشيع ويظهر لدى الأسر ذات المستوى الثقافي الضعيف بحيث أن هذه الأسر من غير الممكن ان تساعد ابنها في دراسته بطريقة جيدة وصحيحة[2].

-انعدام الوعي الثقافي لدى بعض الأسر:

إن انعدام الوعي الثقافي لبعض الأسر يجعلهم لا يدركون الأضرار التي تلحق بأبنائهم جراء انقطاعهم عن الدراسة والنظرة غير السليمة للتعليم التي انتشرت في أوساط المجتمع بسبب البطالة المتفشية وصعوبة الحصول على فرص العمل.

-التقدم التكنولوجي في وسائل الاتصال:

إنّ التقدم التكنولوجي المتسارع أثر سلبا على مجتمعنا وذلك بتقليد الثقافة الأجنبية وبالتالي شكلت خطرا على النسق الثقافي والاجتماعي والديني

[1]- عبد الغني النوري، اتجاهات جديدة في الإدارة التعليمية، دار الثقافة ، الدوحة، ط1، 1991، ص244.

[2] -المرجع نفسه، ص200.

فاستخدام الأنترنت من جانب الشباب بصورة خاطئة تشرد الذهن فتتكون لديه فكرة العزوف والهروب من المدرسة، والسعي وراء الاحتكاك بالمجتمعات الأخرى لجلب ثقافاتهم ونشرها بين أبناء المجتمع ويؤدي إلى وجود فروق بين الثقافة التقليدية والمستحدثة التي تشجع المتعلم على التسرب.

-القنوات الفضائية العابرة للحدود:

تعد القنوات الموجهة لمستهلكي الإعلام عموما ومستهلكي البرامج من فئات الصغار خصوصا من أسباب التسرب المدرسي، وأحدثت العلاقة بين البرامج المقدمة للأطفال والمراهقين وبين التسرب المدرسي خلال السنوات الأخيرة ضجة إعلامية كبيرة، إذ يعتبرها البعض ضرورية في بناء الشخصية غير أن هناك من أثبت العكس من خلال نتائج بعض الدراسات كالتسرب في مراحل تعليمية نتيجة الملل وروتينية الموقف التعليمي[1].

- واقع التسرب في الجزائر:

أفادت وزيرة التربية الوطنية نورية بن غبريت يوم الخميس من أكتوبر 2014 بالجزائر العاصمة أنّ01.67% من الذكور في الطور الابتدائي و11.86% في المتوسط قد تخلوا عن الدراسة خلال 2014/2013 مقابل 01.43 بالمائة لدى الإناث في التعليم الابتدائي و7.22% في مرحلة التعليم المتوسط.

من خلال هذه الإحصائيات نجد أن عدد المتسربين من الذكور أكثر من الإناث واعتبرت الوزيرة أن النجاح لدى الإناث يعد الوسيلة الوحيدة لتحقيق مكانتهن الاجتماعية مشيرة إلى الوقت الكبير الذي تقضيه البنات في البيت والذي يساعدهن كما قالت على الحفظ والدراسة ومراجعة الدروس.

وتشير الإحصائيات الرسمية المتعلقة بالتسرب المدرسي بالنسبة للسنة الخامسة ابتدائي أنها تصل سنويا 7.73% و8% بالنسبة لمختلف أقسام التعليم المتوسط فيما تبلغ حدود 23% بالنسبة للتعليم الثانوي.

ومنه فالقراءة الأولية لهذه الأرقام تنبئ عن واقع مزر للمنظومة التربوية، فرغم الإصلاحات التي تبذلها الدولة في القطاع، ومن خلال توفير الوسائل التي تضمن حق التعليم لكل طفل من نقل ومطاعم مدرسية ..الخ بكل مناطق الوطن إلا أن نسب الدخول المدرسي تبقى غير متكافئة عبر مختلف مناطق البلاد ،حيث تقل حظوظ التعليم في المناطق النائية منها نتيجة الظروف الاجتماعية التي يعرفها الأولياء، ويعجز فيها الأولياء عن تحقيق متطلبات أبنائهم المدرسية سيما في ظل بعد المدارس عن السكن ،وانعدام وسائل النقل المدرسي، وغالبا ما تكون الفتاة الضحية الأولى حيث تضطر إلى التخلي عن مقاعد الدراسة في سن مبكرة، وقد أشارت آخر الإحصائيات المتعلقة بالأمية في الجزائر أن 6% عند الأطفال منهم لا تتعدى أعمارهم 15 سنة ،واقع أصبح ينذر بالخطر، ومعالجة الظاهرة تتطلب إجراءات صارمة وفعالة وتضافر للجهود وتعاون بين الأسر والمدرسة

[1]-نعيم الرفاعي، الصحة النفسية، مطبعة الرياض، الرياض، ط،19826، ص144.

لتجنيب الأطفال الشارع الذي اصبح مدرسة تكوين المنحرفين(وزارة التربية).

الخاتمة:

يؤدي العنف المدرسي للتسرب المدرسي بشكل أو بآخر نظرا لتداخل وتعقد العوامل المختلفة. إن الجيل الجديد يحتاج إلى أساس ثابت ومتين من قيم عليا راسخة في ديننا الحنيف وأخلاق مستمدة من أخلاق المصطفى –صلى الله عليه وسلم– يستدل بها في حياته اليومية والمدرسية، فالعنف يولد العنف وشيوع مشكلات التلاميذ في المدارس أمر يستدعي تظافر كل الجهود للقضاء على المشكلات في مهدها قبل أن تستفحل ويعسر علاجها، حيث أن بعض الدراسات النفسية والتربوية المهتمة بسلوك الأطفال والمراهقين تفيد أن التلاميذ يقعون أحيانا في مشكلات العنف لأنهم لا يعرفون أساليب أخرى لحل النزاع فهم غالبا ما يكونون قد نشئوا في بيئة أسرية تطبق أساليب العنف والقسوة في التربية ويذهبون إلى مدارس تتعامل معهم عند وقوعهم في الخطأ بنفس الأساليب العنيفة، حيث يقابلون بالسخرية والإهانة والشتم أو الضرب، ويعود هذا على التلميذ بتراجع مستواه التحصيلي ثم الانقطاع النهائي عن الدراسة والتسرب.

قائمة المراجع:

1. إبراهيم عبد الكريم المهنا، عوامل التسرب الدراسي لدى المنحرفين، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، العدد 92، 2002.
2. أحمد يحي خولة، الاضطرابات السلوكية والانفعالية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2000.
3. أديب عبد الله النوايسة، تعديل سلوك الفرد والاسرة والمدرسة والحياة، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، 2009.
4. حجي أحمد إسماعيل، الإدارة التعليمية والإدارة المدرسية، دار الفكر العربي، القاهرة،1992.
5. حكمت عبد الله البزاز، بني جانيت البزار، التسرب في التعليم، دار الجاحظ للطباعة، والنشر، بغداد، ط1. 1975.
6. الحمدان جاسم محمد، تسرب الطلبة الكويتيين من التعليم العام الحكومي، المجلة التربوية، الكويت، العدد الثالث والستون،2002.
7. حويتي أحمد، ورقة عمل مقدمة حول العنف والمجتمع بأعمال الملتقى الدولي، جامعة بسكرة، 2003.
8. خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الاجتماعية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995.
9. دائرة الإحصاء المركزية الفلسطينية، كتاب الإحصاء التربوي السنوي، سلسلة الإحصاءات التربوية، فلسطين، الرقم الثاني، 1996.
10. سعد بن محمد علي الهميم، الخصائص الاجتماعية للمتسربين دراسيا، رسالة ماجستير، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض،2010.
11. سوسن شاكر مجيد، العنف والطفولة دراسات نفسية، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008.
12. صباح عجرود، التوجيه المدرسي وعلاقته بالعنف في الوسط المدرسي حسب اتجاهات تلاميذ المرحلة الثانوية، رسالة ماجستير في علم النفس،2007.

13. عبد الرحمان العيسوي، سيكولوجية الطفولة والمراهقة، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1997.
14. عبد الغني النوري، اتجاهات جديدة في الإدارة التعليمية، دار الثقافة، الدوحة، ط1، 1991.
15. عزت الطويل، سيكولوجية العنف في عالمنا المعاصر الأسباب والعلاج،http في el: azayem .com/new-page-//2003 46.htm.
16. علي رسلان، مشكلة التسرب في المدرسة الابتدائية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ط1. 1973.
17. عيوش ذياب، دور العائلة في منع التسرب، مجلة شؤون تربوية، فلسطين، العدد الثاني عشر،1995.
18. غزوان هادي، ثقافة العنف المدرسي في العراق بين عهدين، العراق، جريدة الصباح العراقية، العدد 824، 2006.
19. فهمي محمد سيف الدين، اقتصاديات التسرب، بحث مقدم حول حلقة تسرب التلاميذ. إلى جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجزائر،1972.
20. مجلة التوثيق التربوي، المملكة العربية السعودية،2000.
21. محمد أحمد الخريف، معجم المصطلحات الاجتماعية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1994.
22. محمد العكور، الدليل الوقائي لحماية الطلبة من العنف والإساءة، إدارة التعليم العام وشؤون الطلبة، الأردن،2006.
23. مصلح الصالح، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار عالم الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، 1999.
24. منصور بن عسكر، العنف في المدارس، بحث مقدم الى الندوة العلمية المنعقدة في الرياض، مركز الدراسات والبحوث الأكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 2003.
25. المهنأ إبراهيم عبد الكريم، عوامل التسرب الدراسي لدى المنحرفين، مطابع مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، العدد الثاني والعشرون،2001.
26. Brimer.M.A and Pavlik. Wastage in Education.Unesco.paris.1971.
27. Decos Higle: School dropout. Enrollment and graduation rates in California. Californian research bureau.
28. Linda shildler: Teacher sanctioned violence, childhood Education, spring, 2001.
29. Micheal.j.frank: negative social experiences and propping Qvt of school. Educational psychology.E2001.

مقاربة سوسيو-تاريخي لظاهرة الرقية

بولعشب زهير: علم الاجتماع جامعة برج بوعريريج

"أسطورية الطالب ومريضه لا تمثل حقيقة موضوعية، ولكنها تعتقد كذلك، وذلك نتيجة لثقافة الجماعة، التي تجعلها كحقيقة فهي حقيقة في الواقع."

عيسى ويتيس

مقدمة :

عند تتبعنا لممارسات الرقية عبر تاريخ الأفراد والجماعات الاجتماعية، وجدنا أنّ مفهومها العام، لا يعدو أن يكون مجموعة من التضرعات والتوسلات والأدعيّة، التي يتقرب بها الفرد أو الجماعة إلى القوى الغيبية (أرواح، آلهة، إله...) من خلال الأشكال المختلفة من الطقوس، بغية الشفاء من الأمراض والكوارث، أو اجتنابها والوقاية منها، أو رفعها عنهم في حالة وقوعها. وهي من الطقوس الدّينيّة التي لازمت كل الديانات السماويّة والوضعيّة، لأنّها مرتبطة بالاعتقاد وذات دلالة رمزية، غير أنّها في الوقت نفسه ذات تأثير وفعّاليّة في واقع المجتمع.

يستمد تأثير وفعاليّة الرقية من فعّاليّة الدّين،[*] الذي يمنح للأفراد والجماعات، الشعور بالأمن والراحة النفسية وقوّة الاعتقاد بأنّ قوى غيبية عظيمة، تساعد الإنسان في حياته وبعد موته وهي وظائف نفسية، ووظائف اجتماعية تتمثل في تماسك وترابط أفراد المجتمع.[1]

إنّ الدّين يعطي للإنسان إجابات عن القضايا الكبرى للوجود[2]. والرقية هي ممارسات عمليّة لهذه الاعتقادات، حتى أنّنا وجدنا نفس أشكال الرقى التي عرفتها المجتمعات البدائية، لا زالت تمارس إلى اليوم، خاصة عند المجتمعات التي لم تتعرف على الأديان السماوية الكبرى (Les religions monothéistes)

نحاول في هذا المقال الإجابة على بعض التساؤلات التي نراها مهمة في هذه المقاربة:

هل الرقية مرتبطة فقط بالمجتمعات اللاتي عرفت الدّيانات السماويّة كالمجتمعات اليهودية والمسيحية والإسلاميّة، أم أنّها مرتبطة بوجود الإنسان نفسه، أي ظاهرة بشرية؟ لماذا يلجِأ الفرد إلى الرقية؟ أو بمعنى أخر، ماذا تقدم الرقية للأفراد والجماعات الاجتماعية من منافع حتى يلجئون إليها؟ هل الرقية ذات أشكال مختلفة؟ وماهي

---

[*] نقصد به كل مذهب إيديولوجي أو الاعتقادات التي تجيب عن القضايا الكبرى للوجود.

[1] مالينوفسكي، برنسلاو، السحر والدين عند الشعوب البدائية، تر: فيليب عطية، الهيئة المصرية للكتاب، مصر 1995، ص21.

[2] ريمون بودون، بوريكو فرنسوا، المعجم النقدي لعلم الإجتماع، تر: سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ص321.

أسباب هذا الاختلاف؟ هل هناك فرق بين ممارسات الرقية في المجتمعات التي عرفت الدّيانات السماويّة وباقي المجتمعات الأخرى؟ هل هناك فرق بين المجتمعات الإسلاميّة والمجتمعات اليهوديّة والمسيحيّة، وباقي المجتمعات الأخرى؟

هل للمجتمعات الإسلامية من خلال تاريخ ممارستها للرقية، شكلا واحدا أم لها أشكال متعدّدة؟ وهل للرقية تحديد شرعيّ،[*] من حيث المضمون والشكل أم لا؟ هل المجتمع الجزائري باعتباره أحد المجتمعات الإسلامية قد استثنيّ من المسار التاريخي–الثقافي للمجتمعات الإسلاميّة الأخرى أم لا؟ وما هو الشكل المنتشر خلال العشريتين الأخيرتين؟

1- تحديد مفهوم الرقية

أ–نظريا:

يعرفها " فريديريك معتوق" Maatouk)، (Frederik بأنها: "كلام وعبارات الساحر والتي تهدف إلى إحداث العملية السحرية"[1] أما "شاكر مصطفى سليم" فيعرفها بقوله: "أنها تعزيم أو كلمات أو جمل أو أغاني يرددها أو يغنيها السحرة، لتحقيق أغراض سحرية وتعويذة يحملها صاحب الحاجة على جسمه."[2]

بينما يرى الجندي فتحي ابن الفتحي في عريفه بأنها: "يقصد بها العلاج بالقرآن لأمراض عجز الطب وعلم النفس عن علاجها"[3] ومن مفاهيم الرقية الشرعية نجد: "تعويذات والتجاءات إلى الله من شرور خلقه سواء كانت إنسيّة أو جنيّة".[4]

ب–إجرائيا[**]

سوف نتناول الرقية في مقالنا هذا بالمعنى التالي: الرقية هي طلب المسترقي من الراقي إرقاءه رقية شرعيّة، أي مشروعة في الدّين الإسلامي، وذلك من خلال قراءة الراقي للقرآن الكريم أو بعض الأدعيّة من الأحاديث النبوية الواردة في هذا الشأن، وهو واضع يده اليمنى على رأس المسترقى، أو يرقي له الماء أو زيت الزيتون أو العسل ... التي يتوجه بها إلى الله تعالى، بغرض التحصين أو العلاج من أذى وشرور الإنسان أو الجان، مثل: السحر، المس، العين، إلى جانب بعض الأمراض التي عجز عنها الطب الحديث.

2–الرقية في المجتمعات البدائية:

لقد شكلت القضايا الكبرى للوجود أهم انشغالات وتساؤلات الإنسان قديما، وهي تشغله حاضرا، وسوف تشغله في مستقبل. لكن بسبب محدوديّة القدرات العلميّة والفكريّة والثقافيّة لدى

---

[*] أي مستمدة من الشريعة الإسلامية، مهم كان المذهب أو الفرقة.

[1] Maatouk, Frederick, Dictionary of sociology; English, frensh, Arabic, academia, Beirut, Lebanon, 1993, p 193.

[2] شاك، مصطفى سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، جامعة الكويت، الكويت، ط 1،1981، ص 914.

[3] الجندي، فتحي ابن فتحي، المعالجة بالرقى والقرآن، دار الهدى، الجزائر، 1992، ص 23.

[4] الحنبلي أبو بكر، بن محمد، علاج الأمور السحرية من الشريعة الإسلامية، دار النهضة، الجزائر ،1990، ص 58.

[**] هذا التعريف الإجرائي حدّد نتيجة بحث ميداني قام به الباحث في إطار رسالة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع الثقافي حول' –عوامل تزايد الإقبال على الرقية في الجزائر.

أفرادها كانت المجتمعات البدائيّة أكثر المجتمعات انشغالا بها، وهي التي وجدت نفسها عاجزة عن إعطاء تفسيرا للظواهر الكونية والاجتماعية، وحتى النفسية، وهي ممارسات مرتبطة أساسا باعتقاداتها الدّينية، وكيّانها الاجتماعي البسيط والبدائي. فأدى كل ذلك إلى زيادة درجة الغموض والخوف لديه.

لقد ارتبطت درجة الغموض والخوف لدى أفراد هذه المجتمعات، بدرجة معرفتها ومعايشتها للظواهر الكونيّة والاجتماعية الجديدة. فازداد غموضها وخوفها عندما عرفت الأمراض والأسقام التي فتكت بها، وعندما عرف من قبل حاجته إلى الأكل والشرب، خاصة في أيام الجفاف والمجاعات، وازداد غموضه وخوفه أكثر عندما عرف الكوارث الطبيعيّة، كالفيضانات والبراكين والعواصف ...إلخ.

ومن أجل إيجاد تفسيرات لانشغالاته وتساؤلاته، اهتدى الإنسان في البداية إلى محاولة التحكّم في أسرار الطبيعة لأغراض عمليّة تحكما مباشر.[1] إذ أن للتراث السحري آلاف الصيغ والدعوات للعن القوى الشريرة ...من أجل التأثير– الفوق الطبيعي– على تلك القوى الطبيعية وإخضاعها لإرادة الإنسان[2] وكان يفعل ذلك بواسطة هذه الصيغ، كالشعيرة والتعويذة حتى تجبر الريح والطقس، والحيوانات والمحاصيل على طاعة أوامره[3].

وعندما عرف درجة قصور قدرته السحرية، أخذ بالخوف والرجاء يناشد الكائنات العلوّية، الأرواح الحارسة، أرواح الأسلاف أو الآلهة. هذا بعدما توصل إلى قناعات مفادها أن قوى غيبية (أرواح وآلهة) تتحكم في هذه الظواهر، وأنّه لابد أن يتصل بها، غير أنّ هذا الاتصال لا يتم إلا بواسطة التضرع والتوسل إليها عن طريق تقديم القرابين، لاسيما وأنّها الوسيلة الوحيدة التي تزيل من عقله هذا الغموض.[4] ولكي يتمكّن من الاتصال بهذه الآلهة والأرواح، اعتمد على طقوس تعبدية، تعدّدت أشكالها عبر الزمان والمكان، غير أنّها اشتركت في خاصية تقديم القرابين.

وبمرور الزمن، تراكمت هذه الأشكال وأصبحت عادات وتقاليد وطقوس تعبدية، توارثتها الأجيال المتعاقبة، يتضرعون ويتوسلون بها خوفا من غضب الأرواح والآلهة، وطمعا في كشف الضرر عنهم والشفاء من الأمراض على وجه التخصيص.

لقد وضفت المجتمعات البدائية لهذه الممارسات والطقوس أفرادا متخصصين وهم الكهنة والسحرة، الذين أوكلت لهم مهمّة المعالجة (بالرقية)، باعتبارهم يمثلون خيرة أفراد المجتمع، وذلك بما اشتهروا به من قدرات على الاتصال بالأرواح الشريرة، ومن ثمة يعملون على تحديد خطوات العلاج حسب الحالات والتي يقوم على أساسها

---

(1) مالينوفسكي، برنسلاو، مرجع سابق، ص 15.

(2) الجوهري، محمد، الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية، الجزء 1: دليل العمل الميداني لجامعي التراث الشعبي، دار المعرف الجامعية، الإسكندرية،1981، ص52.

(3) نفس مرجع، ص16.

(4) Akoun. André et autres, Encyclopédie de sociologie, le présent en question, Larousse paris,1975, p 367.

تحضير القرابين.[1] من خلال تلاوة أدعية وطلاسم غامضة بالنسبة للآخرين. أي أنهم كانوا يتصلون بهذه القوى الغيبية عن طريق السحر الذي يمنح للفرد الإحساس بالأمان، باعتباره طريقة في التعامل مع الأخطار الحقيقية.[2] لأن أسباب الأمراض والمصائب في المخيال الاجتماعي للمجتمعات البدائية تعود إلى الأرواح الشريرة التي تؤذي الإنسان. بل جعلوها مصدر كل شر وبلاء وعليه فإنّهم اعتمدوا في طرق علاجهم على استرضاء الأرواح[3] بالقرابين المتنوعة.

وأهم ملاحظة يمكن أن نسجلها هنا، هو أن هذه الأشكال من الرقى لم تندثر كلية، بل استمرت إلى العصر الحالي. وهذا ما تؤكده الدراسات الحديثة، خاصة الأنثروبولوجية منها، على أن هذه الأشكال والتعاويذ القديمة مازالت تمارس في عصرنا الحالي. خاصة في المجتمعات التي لم تعرف الديانات السماوية الكبرى والتي اصطلح على تسميتها بالشامانيزم(Le chamanisme) والمنتشرة خاصة في آسيا الوسطى وسيبيريا.[4] بل وجدت في كل القارات حتى أوربا.[5] أبعد من ذلك، يذهب "لياد" (Eliade)إلى الاعتقاد بوجود الشامانيزم داخل عدّد معتبر من الدّيانات لأنّه يبقى دائما كتقنية إلهام في متناول بعض النخب الذين يمثلون بعضا من الجانب الصوفي من الدّين.[6] ويعرّفه أنّه "أحد التقنيات العتيقة للصوفيّة الدّينيّة."[7]

ولمفهوم الشامانيزم (Le chamanisme) عدّة مصطلحات في وسط وشمال آسيا والتي تحمل نفس المعنى مثل " الياكوت" (Le yakote) و"أدوقان" (Udagan)و" المنغول بوقا" (le mongol buga) كما يسمى من يقوم بعملية التوسل والتضرع إلى القوة الغيبية والغامضة ب "الشامان"(Le chaman) الذي يعتبر محور الحياة السحرية لوسط وشمال آسيا على الخصوص ... والأهم في كل ذلك أنّه يمتاز بخاصية التحكم في النار، وهي خاصية لم تكن موجودة في المجتمعات البدائية قبل مجيء الديانات السماوية الكبرى.[8]

وهكذا إذن نخلص إلى أن الرقية وجدت منذ وجود الإنسان، وهي بالنسبة للمجتمعات البدائية، عبارة عن ممارسات عملية لاعتقادات دينية تجيب عن التساؤلات الكبرى للوجود، وكان الكاهن أو الساحر هو من أوكلت إليه هذه المهمة، حيث تطورت ممارستها هذه، من محاولة التأثير المباشر على الظواهر الطبيعية، إلى مناشدتها والتوسل إليها عن طريق تقديم قرابين لها (الآلهة، الأرواح...).

---

(1) وصفي، عاطف، نفس المرجع، السابق، ص 144.

(2) الفار، على محمد، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، 1978، ص170.

(3) وصفي، عاطف، نفس المرجع، ص144.

(4) Encyclopédie Universalise, France, vol 4, paris, 1969, p124.

(5) Eliade, Mercea, Initiations rites, sociétés , naissance mystique , essai sur quelques types d' initiations, éd :Gallimard, paris,1976,p20

(6) Eliade, Mercea, le chamanisme et les techniques archaïques de l extase, Payot, paris, 1959 p 21.

(7) IBID, p14

(8) Encyclopédie Universalis, p12, France OPTIC ,p 124.

3 –الرقية في المجتمع اليهودي:

كان لمجيء الدّيانة اليهودية، الأثر البالغ في تغيير نظرة الإنسان فيما يخص التداوي والمعالجة النفسية والروحية. باعتبارها أوّل دّيانة سماوية من الثلاث دّيانات التوحيديّة الكبرى، حيث خرجت عن سيطرة ونفوذ الكهنة والسحرة، وأصبحت من اختصاص الأنبياء والرسل، ثم رجال الدّين من بعدهم، كالربيّون والأحبار والحاخامات، الذين عالجوا بالرقية، وذلك من خلال قراءة بعض الآيات من التوراة مع النبي موسى، والإنجيل مع النبي عيسى عليهما السلام.

ثم جاء الربيّون والأحبار من بعدهم، فعالجوا ومازالوا يعالجون الأمراض النفسية والعصبية عن طريق الرقية إلى وقتنا الحالي، بما ورثوه من أساليب في معالجة المرضى والمصابين، والذين وهبوا القدرة على ذلك بواسطة قراءة آيات من الكتاب المقدس.

يعتقد اليهود أن السبب الرئيسي للأمراض هو الابتعاد عن تعاليم الدّين، وارتكاب الذنوب والمعاصي. فكان من المنطقي أن يعالجوا مرضاهم بالابتعاد عن الذنوب والمعاصي، ثم التوبة منها بالرجوع إلى الله. لأنّ الأمراض عبارة عن عقوبة، يبعثها الرب لعباده عقوبة لهم على ما ارتكبوه من أخطاء وذنوب.

المعالجة عند اليهود كانت وقائية قبل كل شيء، مبنيّة على أساس التمسك بالحياة الطاهرة، الخالية من الذنوب والمعاصي. وجاء في التوراة: "الإله(يهوه) رؤوف لا يلحق الأذى بعباده، فهو كالأب الرحيم الذي يعاقب أولاده عن عصيانهم إياه، فيضرب العاصي بالجنون والعمي وحيرة القلب."[1]

وهذا الذي يشير إليه(Le rabbin) جوناثان في قوله: "إنّ المرض يأتي من سبعة أبواب هي: السبّ، سفك الدم، حنث اليمين، وعدم العفة والشرف، والشر والغرور والسرقة والحسد".[2] فالسبيل الوحيد للشفاء إذن هو التوبة من الخطايا والذنوب لأنّه لا نتيجة ترجى من الشكوى إذا لم يلتجئ المذنب إلى الإله (يهوه) بالاستغفار وطلب الرضى والغفران، فإذا استجاب له، تم الشفاء، وإلاّ فإنّه مطالب بتجديد التوبة والندم على ما قدم وهكذا مرات عديدة، إذا لم يستجب له، حتى يوهب التوبة والمغفرة.

كانت الرقية عند اليهود تتم عن طريق الهمس في أذن المريض ببعض الآيات من سفر الخروج، التي تقول: "إذا أصغيت لكلام الرب إلهك، وعملت ما هو حق في نظره، واستمعت إلى وصاياه، وحافظت على جميع فرائضه، فلن أرسل عليك أي مرض من الأمراض التي أرسلتها على المصريين، فإنّي أنا الرب الذي يبرئك."[1]

ويعتقد اليهود[2]. أنّ الإله(يهوه) يسلط على العاصين والمذنبين من عباده – زيادة على الأمراض الجسمية – أمراضا روحية ونفسية عن طريق الشياطين(Les satans) فهم أكثر اعتقادا

---

[1] غالب، مصطفى، مرجع سابق، ص 30، عن – سفر التثنية، إصحاح (28–29).

[1] نفس المرجع السابق، ص30.

[1] سفر الخروج، إصحاح (15–20).

[2] مالكا، الياد، العوائد الإسرائيلية العتيقة، ثانوية الكتاب، الرباط، 1962، ص 13.

بتأثير الشياطين من الديّانات الأخرى، فهي موجودة في كل مكان، تحيط بهم من كل جهة، وللوقاية منها يقومون بمناجاة الله والاستنجاد بالملائكة على شكل رقى وتعاويذ. ويقومون بضرب من يظنون بأن به مس من الشيطان، ضربا مبرحا بالعصي، معتقدين أنهم يضربون الروح الشريرة التي تسكنه، لأنّ المس الشيطاني عند اليهود هو مس روح شريرة لجسد إنسان، والتي تتكلم من فمه وتسبب له الضيق واضطرابات روحية، ويطلق على هذا النوع من الاستحواذ مصطلح ديبوك (Dibbouq) وفي الحالات المستعصية يتّم إحضار الحاخام لتخليص المريض.

ويعتقد اليهود مثلا أن كائنا من الأرواح يدعى "كتيليت " يقوم بمس المولود الجديد وبالأخص إذا لم يختتن بعد وحتى المرأة النفساء تحتاج إلى الحماية منه.

جاء في سفر (Hasidim)"كتاب الأتقياء": أنّ أقارب المولود خلال السبعة أيام الأولى للولادة، لا يعطونه لقبا، وإنّما يدعونه بالضيف، وأثناء ذلك يأتي الحاخام مرفقا بخمسة أطفال، يحضرون للنفساء نوعا من الإطارات، توضع بين الأرواح الشريرة وحجرة النفساء، تكون محمّلة بنصوص من الكتاب المقدس وأسماء مقدسة بينما يتلوا باقي الحضور نصوصا من الكتاب المقدس وهذا كل مساء الأيام التي تسبق عملية الختان أين يحصل المولود الجديد على الحماية الإلهية.[3]

ومن الأسباب التي كان اليهود ينسبون إليها الأمراض المختلفة، نجد العين الشريرة، ويطلق عليها" هاراع".[4] ولذلك كانوا يلجؤون إلى التعاويذ والعبارات المقدسة، التي كانوا يدعون بها للوقاية منها:"ربي احمني من عين هاراع".

ما نستنتجه ممّا تقدّم أنّ المجتمعات البدائية كانت ترجع أسباب الأمراض إلى الأرواح الشريرة والسحرة، أصبحت تنسب إلى الذنوب والمعاصي، في المجتمعات اليهوديّة وبعدما كانت أساليب المعالجة تتم عن طريق إرضاء الأرواح والآلهة بتقديم القرابين، صارت تتم أولاّ بالتوبة والابتعاد عن الذنوب وطلب المغفرة، والعفو ثانيّا. بينما نجد الأحبار والحاخامات والربيّون الذين اتبعوا الأنبياء، هم من أوكلت إليهم مهمة إرقاء أفراد المجتمع بعدما كانت من اختصاص الكهنة والسحرة.

4- الرقية في المجتمع المسيحي :

تعتبر ممارسة الرقية ظاهرة دينية متأصلة في المجتمع المسيحي، وذلك منذ العهد الأول أي زمن المسيح -عليه السلام-والمتصفح لأناجيل لوقا، متى، ماركوس أو يوحنا، تتجلّى له حتمّا، المكانة التي كانت تحظى بها الرقية في المخيال الاجتماعي المسيحي، وكيف كانت طريقته في العلاج تعتمد على الرفق والرأفة والحنان، وبذلك يعيد لهم صحتهم الجسمية والعقلية.

ونجد القرآن الكريم يشير إلى هذه المعاني، فذكر أن عيسى عليه السلام أبرأ الأعمى والأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله تعالى وهي معجزات أيده الله بها.

جاء في القرآن الكريم:" إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ

[3] نفس المرجع، ص 15.

[4] نفس المرجع، ص 15

الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ "[1]

وجاء أيضا: "... أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "[2].

جاء في إنجيل لوقا بأن المسيح – عليه السلام – رد لأعميين بصرهما:"...وسار اليسوع من هنالك فاتبعه، أعميان يصيحان ارحمنا يا ابن داوود، ولما دخل البيت دنا منه الأعميان...فلمس اليسوع أعينهما وقال: "فليكن لكما قدر إيمانكما فانفتحت أعينهما." [3] كما جاء في إنجيل لوقا أيضا أنّه أخرج من رجل شيطانا، روح شريرة كانت تسكنه منذ زمن بعيد:"...استقبله رجل من المدينة به شيطان منذ زمن طويل... وسأله اليسوع قائلا: "ما اسمك، فقال: جوقة، لأن شياطين كثيرين قد دخلوا فيه. وسألوه ألا يأمرهم بالذهاب إلى الهاوية...فخرجت الشياطين من الرجل".[4]

وجاء أيضا أنّ المسيح أبرأ رجلا برصا: "وعند دخوله إلى القرية استقبلوه وقوفا من بعيد، ورفعوا أصواتهم قائلين: يا يسوع المعلم ارحمنا، فلما رآهم قال لهم امضوا وأروا الكهنة أنفسكم. وهم ذاهبون طهورا" وجاء في إنجيل القديس متى أنه أبرا مجموعة كبيرة من الناس من أمراضهم المختلفة: "ولما عبروا جاءوا إلى أرض جناسر، فعرفه أهل ذلك المكان فأرسلوا إلى أهل تلك البقعة كلها بكل من كان مرض. وسألوه أن يلمسوا طرف ثوبه، فكل من لمسه برئ."[1]

إنّ النصوص التي توضح ذلك كثيرة، والأهم هو أن أفراد المجتمع المسيحي كانوا أشد ثقة في اعتقادهم بقوة روحانية المسيح، وسلطاته الفائقة على العقول وقدرته على المعالجة عن طريق التأثير الروحاني.

فكان من الأعمال التي قاموا بها من بعد المسيح-عليه السلام-، كما هو الشأن مع القديس بطرس، أنّه عالج مريضا عن طريق الرقية، بمجرد أن نظر إليه وقال له:" باسم يسوع المسيح الناصري قم وأمش. وأمسكه بيده اليمنى وأقامه، ففي الحال تشددت رجلاه وكعباه فوثب ووقف وصار يمشي."[2]

ولم تكن المعالجة (بالرقى) وقفا على الحواريين، بل تعدتهم إلى القديسين والرهبان، وكبار رجال الدين المسحيين، ومما يروى عن القديس مارتين الطوروسي الذي عاش في أواخر القرن الرابع الميلادي، أنّه عالج صبيتين كانت إحداهما مفلوحة، وكانت الأخرى خرساء، وذلك بأن صب

---

[1] القرآن الكريم، المائدة، آية 110.

[2] القرآن الكريم، آل عمران، آية 48.

[3] الكتاب المقدس، الإنجيل للقديس لوقا، الفصل 19 (42-43) تر: البابا كيراس السادس، دار المعارف، القاهرة، 1978.

[4] نفس المرجع، الفصل 19 (27-30).

[1] نفس المرجع السابق، الفصل 19 (12-14).

[2] نفس المرجع، الفصل 14 (34-36).

الزيت في فميهما ويعرف هذا العلاج بالكرامة أو المعجزة، الذي شاع خلال القرون الوسطى، الذي أساسه الإيمان والعقيدة، ويذهب "جنيه".[3] إلى أنّ طريقة العلاج بالكرامة، كانت متعبة بشكل ملفت للأنظار عند مقبرة القديس "ميردال" بفرنسا حوالي سنة 1736.

إنّ نظرة المخيال الاجتماعي المسيحي، التي تعتقد في المقدرة الفائقة لرجال الدّين على علاج المرضى، جعلتهم يحظون بمكانة اجتماعية عالية، وجعلت أصحاب الأمراض العقلية يترددون عليهم ويتوسلون إليهم، ليخرجوا الأرواح الشريرة من أجسادهم لتعود إليهم صحتهم العقلية. وكان هذا قبل أن يشتد نفوذهم تعسفا في معالجة مرضى العقول أين كانوا يحرقونهم ويعذبونهم"[4].

ويتطرق الدكتور لودج باتش (Lodge Batch)، في كتابه عن الأمراض العقلية فيقول: "إن آلافا مؤلفة من مرضى العقول الذين عرفوا بالوداعة ودماثة الخلق، كانوا في عصر الاضطهاد الدّيني في أوروبا، يحرقون وهم أحياء، ومن سمح لهم بالبقاء من هؤلاء البائسين، كانوا يعذبون عذابا شنيعا، الحرق بالنّار أسهل منه وأخف"[5]. ولذلك اعتبر رجالها كمشعوذين وسحرة، فكان من يعثر عليه متلبسا بعملية شعوذة أو سحر يحرق.

بينما عرفت ممارسة الرقية تطورا نوعيّا، استرجعت من خلاله المكانة التي كانت تحظى بها خلال العهود الأولى، حيث صارت لها قواعد وأسس، ووظائف خاصة بها مستندة في ذلك إلى قوانين كنائسية محددة، وهذا دليل على أهمية الرقية في المجتمع المسيحي الحالي، كما يقرره الأبوين: «Prêtresفرنيت جون (Vernette jean) ولونوف نيكولاس (Le Neuf Nicolas) من خلال كتابتهما حول الرقية والرقاة في المجتمع المسيحي الحالي، وهذا ما جلب لها عددا كبيرا من المرضى والمصابين بشتى الأمراض: "ازداد عدد الأشخاص الذين يأتون لاستشارة القسيس عندما يكون لهم إحساس شديد بوجود شيطان أو أنهم مسحورون من طرف شخص يريد لهم الشر"[1].

وتتجلى أهمية الرقية في المجتمعات المسيحية من خلال الاهتمام الكبير الذي تلقاه في الأفلام السينمائية التي أنتجت، ومن أهمها فيلم "الراقي" (L'exorciste). الذي يحكي قصة فتاة ذات اثني عشر ربيعا، والتي ظهرت عليها منذ مدة اضطرابات غريبة في شخصيتها. فرغم الفحوصات الطبية العديدة التي قامت بها، غير أن حالتها بقيت في تدهور مستمر ومأساوي. فكانت تواكب هذه الاضطرابات حالات وظواهر غير عادية، فقامت الأم "كريس"(Chris)، بالاتصال بالكنيسة من أجل معالجتها عن طريق الرقية، وهي المهمة التي قام بها الأبوين مران وكراس ((Merrin et Karres، فتوصلا إلى تشخيص المرض وهو أنّ الفتاة تعاني من وجود شيطان في جسمها وروحها، فعملا كل ما في وسعهما على طرد الشر الذي يسكنها.

وقصة هذا الفيلم تعبر عن فكرة القديس "جون كريسوستوم" (Saint jean Chrysostome) وهي

---

[3] الكتاب المقدس، انجيل القديس متى، الفصل 14 (34-36)، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960.

[4] نفس المرجع السابق، ص 51.

[5] نفس المرجع السابق، ص 51.

[1] le Neuf Nicolas et Vernette jean , Exorciste aujourd hui, éd : SALVATOR , paris ,1991 p27.

أنّ الحياة المسيحية في النهاية، ماهي إلاّ ذلك الصراع ضد قوى الشر وتكريس انتصار المسيح على الحرام، إذ يقول: في الصراعات الأولمبية، لابد على الحكم ألا ينحاز إلى أحد المتنافسين(...) وفي معاركنا التي نخوضها ضد الشيطان فإنّ المسيح لا يقف بيننا إنما هو معنا".[2]

5-الرقية في المجتمعات الإسلامية:

لم تخرج الرقية في المجتمعات الإسلامية عن إطارها العام الذي حددناه في مقدمة هذا المقال، وذلك من حيث كونها توجه إلى الله بأدعيّة خاصة من أجل الوقاية أو الشفاء من الأسقام والأمراض. لكن هذا لا يعني أنها نفس الرؤية التي كانت سائدة في المجتمعات السابقة، بل جاء الإسلام برؤية جديدة مبنية على فكرة التوحيد التي تنبثق منها نظرة المسلمين إلى الإرادة المرض، الشفاء...

كان العرب مفرطون في استعمال الرقى قبل مجيء الإسلام، إلى درجة أنّهم جعلوها محور حياتهم اليومية، لأنّهم كانوا يرجعون أسباب الأمراض المختلفة والمصائب إلى غضب الآلهة وإلى الأرواح الخبيثة.

بينما انفرد الكهنة بمهمة المعالجة، فكان هؤلاء الكهنة يزعمون بأنّهم يعلمون الغيب وبأنّهم قادرون على استخدام الجن والشياطين لمساعدتهم، عندما يرغبون في الاتصال بالسماء لمعرفة الغيب، فكانوا يعالجون المصابين والمرضى بحكم ما كان لهم من قوة نفوذ ومقدرة على التأثير في النفوس، فآمنوا بفعّالية الأحجار والرقى والتمائم والحرزات والعزائم، فكانوا يستعملونها في معالجة أمراض مختلفة مثل: التخلص من بعض الآلام والأمراض، واكتساب الثقة بالنفس عند مقابلة الخصم والحكام، والتحبب إلى الناس، وتجنب الآفات العامة والإصابة بالعين خاصة.[1]

ومع مجيء الإسلام، حرمت كل أشكال الرقى السائدة باعتبارها مخالفة للاعتقادات الإسلامية، كاعتقاد العرب بتأثير هذه الرقى بلا إذن من الله، واحتوائها على عبارات الشرك، وبأنّهم جعلوها محوّر حياتهم اليومية.

جاء في الحديث النبوي: "إن الرقى والتمائم والتولة شرك"،[2] وهذا التحريم جازم ومطلق، حتى في الحالات التي يكون الغرض منها هو المعالجة، ونجد تعليل سبب هذا التحريم الجازم في القرآن الكريم: "وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا".[3] ومن ثمة نستنتج بأن الرقى التي كانت سائدة في العصر الجاهلي قبل مجيء الإسلام، كانت بالمفهوم الإسلامي للرقية عبارة عن شعوذة.

غير أنّ هذا التحريم استثنى الرقى التي لم يكن بها شرك بالله، فأجاز بعد ذلك الرقية، بشرط أن يعرضونها على النبي-صلى الله عليه وسلم-فكان يقبل التي لا تتعارض مع مبدأ التوحيد، ويرفض التي يرى

---

[1] غالب مصطفى، مرجع سابق ص 55.

[2] العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج10، دار المعرفة، بيروت 19، ص 195.

[3] سورة الجن، الآية 06.

[2] Encyclopédie universalis,2000,cabie robert, « Exorcisme », CD-ROM Universalis Version4.0

أنّها تخالف هذا المبدأ، وهذا المعنى الذي نجده في الحديث النبوي: "روى مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا نرقي في الجاهلية فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال اعرضوا على رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك "[4].

أما جانب الممارسات العملية، جاءت عدة أحاديث تبين أن الرسول- صلى الله عليه وسلم- أرقى أصحابه وأهله. قالت عائشة: "كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه ثم قال: أذهب البأس رب الناس، وأشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما".[5]

وجاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: " كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا أتى المريض يدعوله قال: أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما".[6]

وجاء عن أبي شهاب قال: " لدغت بعض أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيّة فقال رسول الله: "هل من راق؟ "فقالوا: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إنّ آل حزم كانوا يرقون في رقية الحيّة، فلما نهيت عن الرقية تركوها، فقال "لا بأس بها" فأذن له فيها فرقاه"[7] أي أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أذن بأن يرقى لأصحابه، والقرآن الكريم يقرّ بشرعية الرقية، كطريقة للعلاج من الأمراض كما جاء في الآية: "وقيل من راق".[1] أي هل من راق يرقي، وهو تفسير ابن عباس.[2]

نستنتجه من خلال الأحاديث النبوية الشريفة أن الرقية الشرعية نوعان:

- النوع الأول وقائي: وهو مطلوب محبذ، وهي مجموعة من الأدعية التي يدعو الفرد المسلم الله تعالى دون وسائط، وتخص أدق تفاصيل حياته اليومية للفرد المسلم، وهي تعني بالمقابل نجاته من كيد الشيطان وغوايته ووساوسه، أي الراحة النفسية الدائمة التي تجعله يرتفع عن إكراهات الواقع الاجتماعي.

- النوع الثاني علاجي: وهو الذي يعنى بعلاج الأوجاع والآلام المتعلقة بالوظيفة الأساسية للرقية كالسحر، المس، العين، الصرع والأوجاع الأخرى (الحقيقية ليست الوهمية)، والتي توكل لأفراد تتوفر فيهم شروط العلم والتقوى، والتجرد إلى الله، إضافة إلى التجربة الميدانية التي يكتسبونها من خلال الممارسة، فإذا كان الأمر بهذا المعنى، فإنّ الرقية تعتبر محبذة بدليل الأحاديث النبوية الشريفة، وأهمها ما رواه مسلم عن أبي سعيد الحذري "أن رسول الله– صلى الله عليه وسلم – ألمّ به وجع فأتى جبريل–عليه السلام–النبي فقال: يا محمّد اشتكيت؟ فقال– صلى الله عليه وسلم– نعم، فقال: يا محمد "بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك من كل نفس وعين، بسم الله أرقيك والله يشفيك."[3]

---

[4] النووي يحي، صحيح مسلم، باب الرقية، دار إحياء، التراث العربي، ط 1، المجلد 7 بيروت، (ب، ت)، ص 187.

[5] نفس المرجع، ص 180.

[6] نفس المرجع ص 181.

[7] نفس المرجع، ص 241.

[1] سورة القيامة الآية:27.

[2] النووي، يحيى، المرجع السابق، ص 242.

[3] نفس المرجع، ص 141.

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول- صلى الله عليه وسلم- إذا أتى المريض يدعو له قال: أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما."[4] أما إذا كان السبب في طلبها نتيجة أوهام، ووساوس الشيطان لعوامل مختلفة، فإن الإسلام رغب في تركها.

جاء في قول الإمام النووي، في شرحه لصحيح مسلم قوله: "إن جبريل رقى النبي- صلى الله عليه وسلم-" وذكر الأحاديث بعده في الرقى، وفي الحديث الآخر عن الذين يدخلون الجنة بغير حساب الذين لا يرقون[*] ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون، فقد يظن مخالفا لهذه الأحاديث، ولا مخالفة...ومنهم من قال في الجمع بين الحديثين أن المدح لترك الرقى للأفضلية وبيان التوكل الذي فعل الرقى وأذن فيها لبيان الجواز مع أن تركها أفضل وبهذا قال ابن عبد البر."[5] وذلك كله مرده إلى فكرة جوهرية، هي أنّ الأصل في العبادة يكون فيها العبد موصولا بربه مباشرة دون واسطة، والدعاء خاصة. كما أمر بذلك الله تعالى في القرآن الكريم: "وإذا سألك عبادي عني فإنّي قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون."[1] لذلك فاستعمال النوع الأول (الطريقة الوقائية)، يجنب الفرد المسلم الوصول إلى حد طلب الرقية (الطريقة العلاجية) إذا كانت الأسباب وهمية. وليست مرتبطة بالوظيفة الأساسية للرقية، مثل السحر، العين، والصرع. فكانت الرقية الوقائية محور الحياة اليومية عند أصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم - باعتبارها تترك الفرد المسلم، في اتصال دائم بالله تعالى، من حيث أنها تعنى بحياة الفرد في عباداته ومعاملاته، فتعاملوا مع الرقية العلاجية تعاملا موضوعيا، حيث كان الطلب عليها غالبا ما يكون مرتبطا بوظيفتها الأساسية.

نادرا ما كان الطلب على الرقية عند المسلمين الأوائل، متعلق بالقلق أو التأثيرات النفسية التي سببها وساوس الشيطان، وذلك لتمسكهم بالطريقة الوقائية، لأنّهم فهموا أنّ النصوص (المصدرين: القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة)، تطالبهم بالتعامل مع الظواهر الاجتماعية والكونية والنفسية، تعاملا سنني علمي. والنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، نجدها تتكلم ضمنيا عن

---

[4] نفس المرجع ص 181.

[*] قال ابن تيمية :" لا يرقون " هذه زيادة ، وهم من الراوي / لم يقل النبي – صلى الله عليه وسلم – (لا يرقون) وقد قال النبي– صلى الله عليه وسلم – وقد سئل عن الرقى لمن استطاع منكم أن ينفع أخاه لينفعه ، وقال: " لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا " قال: وأيضا فقد رقى جبريل النبي– صلى الله عليه وسلم – ورقى النبي – صلى الله عليه وسلم – والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مستعطي ملتفت إلى الله بقلبه، والراقي محسن قال: و إنما المراد وصف السبعين ألفا بتمام التوكل ، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم و لا يكونهم ، وكذا قال ابن تيمية أنظر ابن الحسن، عبد الرحمن ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء و الدعوة و الإرشاد، وكالة الطباعة والنشر، الرياض،1413هـ، ص52.

[5] النووي، يحيى، نفس المرجع، ص 169.

[1] قرآن كريم، سورة البقرة، الآية 186.

الطريقة الأولى (الطريقة الوقائية)، باعتبارها مرتبطة بعلاقة الفرد المسلم مع بربّه.

أما فيما يخص الطريقة الثانية، فالنصوص التي تتكلم عنها قليلة جدا، بالمقارنة مع تلك التي تتكلّم عن: الاجتماع والاقتصاد، والسياسة، والأخلاق... وغيرها، أي التعامل العلميّ مع الظواهر الاجتماعيّة والنفسيّة، بل إن أوّل نصّ تكلم عن الرقية، هو الحديث الذي نهى فيه الرسول- صلى الله عليه وسلم- عن المعالجة بالرقية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام.

وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه: "عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كانت عجوز تدخل علينا ترقي من الحمرة، فجلس إلى جانبي يلمسني فوجد مس خيط، فقال: ما هذا فقلت: "رقي لي فيه من حمرة، فجذبه فقطعه ورمى به فقال: لقد أصبح آل بيت "عبد الله" أغنياء عن الشرك ...ولكن لو فعلت كما فعل الرسول –صلى الله عليه وسلم- كان خيرا لك وأجدر أن تشفي. تضعين في عينك الماء وتولين: أذهب البأس رب الناس واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما."[2]

فالصحابي "عبد الله، بن مسعود" أنكّر على زوجته الطريقة التي رقي لها بها، لأنّها تعد من الشرك، أي أنّها رقية غير شرعية، بالمقابل وصف لها الطريقة الشرعية، وهي التي كان يمارسها- صلى الله عليه وسلم- غير أنّ العلة التي طلبت الرقية من أجلها، هي من صميم الوظيفة الأساسية للرقية وهي "الحمرة" أي "احمرار في العين". حيث كان مما يرقى من أجلها. ثمّ أنّه حبذ أن ترقى لنفسها: "تضعين في عينك الماء وتقولين...» وكان التعامل كذلك بين الأجيال المتعاقبة، حين كان التفوق الحضاري للمسلمين قائما.

غير أن ظهور المدارس الصوفية، خاصة مدرسة البصرة مع " الحسن البصري " المتوفي سنة (160هـ 776م) ومالك بن دينار المتوفي سنة (128هـ/746م) ومدرسة الكوفة مع أبو هشام المتوفي حوالي سنة (160هـ/776م)، وهو أول من لقب بالصوفي[1].وما آل إليه هذا الاتجاه، بعد انتشار الاسلام في كثير من مناطق العالم، وتعايشه مع ثقافات مختلفة، كالفارسية والرومانية خاصة، حيث أصبح أفراد المجتمع الاسلامي، فضلا على أنهم يعتمدون على الرقى العلاجية)الاستقراء) بدون أسباب حقيقية لذلك (عين، سحر، مس .... وغيرها)، وهو دليل كما قلنا على ترك الطريقة الوقائية، يستعملون الوسائط في دعائهم وتضرعهم إلى الله (الرجال الصالحين والأولياء)، وجعلوا لهم قداسة يبلغون من خلالها الله تعالى، دعوات الأفراد.

في حين أن الاسلام كما رأينا، يجعل لعملية الرقية قواعد ثابتة من حيث الشكل والمضمون، فجعل الأدعية التي يكون مصدرها غير القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، لا أصل شرعي لها في الدّين. هذا من جانب المضمون، أمّا من

(1) Dermenghem, Emile, OP.CIT, p.p12.13.

(2) ابن نفيع، العلياني، الرقي على ضوء أهل السنة والجماعة، دار الوطن للكتاب، ط 1، الرياض، 1411 هـ، ص 10.

جانب الشكل، فقد حدد المواد والأساليب التي يرقى فيها كالماء، زيت الزيتون، العسل، وضع الراقي يديه على رأس المريض، وبحاجز إذا كانت امرأة.

فجعل إذن الوسائط التي هي سمة العرب قبل مجيء الإسلام في رقاهم، وهي الرقى لتي حرمها الرسول – صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنها لا تتماشى مع مبدأ التوحيد الذي يقوم عليه الدين الإسلامي.

ويمكننا أن نشير إلى فكرة مهمة في نظرنا وهي أن انتشار هذه الطريقة من الرقى (رقية غير شرعية)، في المجتمعات الإسلامية، ولجوء الأفراد إليها في كل ما يمكن أن يصيبهم من مكروه، هي ظاهرة ارتبطت أساسا بعصور الانحطاط والتخلف، خاصة في الأوضاع المعيشية الصعبة، والأزمات الاجتماعية والاقتصادية عموما، أين نجد المخيّال الاجتماعي الإسلامي، يتبنى المفهوم السلبي للقضاء والقدر وهو تعبير عن العجز وعدم تقديم الأسباب، أو العجز عن المعاملة السننيّة التي دعا إليها الإسلام كما رأينا، أو بمعنى أدق، عدم إرجاع عوامل الفشل والأوضاع المتأزمة التي يعيشها الأفراد إلى الذات، وإنّما يرجعونها إلى الآخر حتى يبعدون عن أنفسهم اللّوم، ويتخلصون من الصراع النفسي الداخلي، خاصة مع انتشار ظاهرة زيارة الأولياء.

يرى "خليل زميتي" أنّ عصور الانحطاط عند المسلمين، قد عرفت نسج أساطير حول خوارق الأولياء والمرابطين، مازالت تنسج إلى اليوم، حين أشار إلى أنّ "الأفعال الفوق طبيعيّة تدخل في محتوى سوسيو–ثقافي، والتي اعتنى بها منذ تاريخ طويل بعض الكتّاب المسلمين، وهذا ما ذهب إليه "Alfred Bel" في كتابه: (Coup d' œil sur l'islam en berbère) حين تكلّم فيه عن تلك الكتابات الإسلامية، التي اهتمت بوصف الشهادات المتعلقة بالخوارق والمعجزات المنجزة خلال القرون الوسطى، مثل شفاء المشلول، وأن المرابطين يمكنهم الطيران في الأجواء، كما يمكنهم قطع مئات الكيلومترات في ظرف ثوان فقط، وأنّه باستطاعتهم أيضا أن يمشوا فوق الماء بدون أن تتبلل ثيابهم، كما أنّ لهم القدرة على: إرجاع بصر العميان وإسماع الطرشان، وتهدئة العاصفة ..."[1].

غير أنّنا نرى اليوم أن العامل الحاسم الذي كرّس ممارسات الرقية (الرقية غير الشرعية) بين أفراد المجتمعات العربية والإسلامية، هو الاحتلال الأوروبي، حيث عمل على استثمار واقعها الفكري والحضاري، خاصة مفهوم الجبريّة أو القدريّة (الاستعمار المحتوم)، من أجل إخماد محاولات الثورة عليه، وذلك بتشجيع المذاهب والفتاوى التي تدعوا إلى الدروشة والقبول بالأمر الواقع.

والمسار السوسيو–تاريخي لهذه المجتمعات، يشهد تداولا بين المفهومين (الرقية الشرعية والرقية غير شرعية) في ممارسة أفراد المجتمعات الإسلامية للرقية، في معالجة الظواهر الاجتماعية والنفسية خاصة، مرتبط بالأوضاع المجتمعيّة، كما أشرنا إلى دور الاستعمار الغربي من قبل.

---

(1) Zemitti , Khalil , Sociologie de la folie , éd : Alif ,Tunis , 1990, p .38

ويؤكد المفكر" محمد الغزالي" هذه الفكرة في قوله:" الغريب أنّ المسلمين اشتغلوا بهذه السخافات فحولوا دّينهم إلى طلاسم، يناط بها المستحيل في الوقت الذي غلبهم العجز عن شؤون الدنيا وخصائصها. فإذا بهم يتقهقرون في ميادين الحياة، بينما أوتي غيرهم مفاتيح الأرض والسماوات بطرق طبيعية وسهلة"[2].

ونفس الفكرة نجدها عند "جورج بالندي" (George, Balandier) عندما تكلّم في كتابه (Anthropologie politique) عن المجتمعات الإسلامية لجنوب غرب إفريقيا، يشير إلى أنّها عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع الأزمات والأوضاع الاجتماعية على الخصوص، تعود إلى الثقافة الأولى التي كانت سائدة قبل مجيء الإسلام.[3]

تطوّرات الرقية في المجتمعات الإسلامية، وتغيرت وسايرت التطوّرات المجتمعيّة، إلاّ أنّها تميزت عما سبقها من المجتمعات (البدائيّة، اليهوديّة، المسيحيّ) ، لأنّ الإسلام جاء بنظرة جديدة للحياة والكون والإنسان حيث أصبح الكل يدور حول عقيدة التوحيد، فكل شيء لله، وإليه يرجع كل شيء. لذلك ثبت تاريخيّا أنّ الرسول -صلى الله عليه وسلّم- قد حرّم الرقية بادئ الأمر، ثم أجازها لكن بضوابط وقيود، من حيث الشكل والمضمون، ودون أن تخرج عن إطار التوحيد ولذلك أخذت الرقية بعدين: وقائي وهو ما يميز الحياة اليومية للفرد المسلم، من خلال الأدعيّة والأذكار اليوميّة، وعلاجي ويختص به بعض الأتقياء لمعالجتهم المرضى.

كما رأينا أنّ الرقية كممارسة علاجية نادرة الذكر في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، لكنّها عادت بقوة في عصور الانحطاط والتخلف، حيث أصبح المسلمون يرجعون كل ما أصابهم إلى أمور السحر والعين والجن ... ولا يشيرون بأصابع الاتهام إلى ذواتهم، وهو ما أدى فيما بعد إلى ظهور ما يعرف بالرقية غير الشرعية، من خلال التوسط بالأولياء والصالحين إلى الله تعالى.

6-الرقية في المجتمع الجزائري:

المجتمع الجزائري هو أحد المجتمعات الإسلامية، والذي لم يستثنى من المسار السوسيو-ثقافي الذي عرفته ممارسة الرقية في المجتمعات الإسلامية عموما. فعرفت ممارسات الرقية بالمفهومين: الشرعي الوقائي، في مراحل الازدهار والتقدّم الفكريّ والحضاري، والاجتماعي والاقتصادي. خاصة مع تأسيس الدولة الحماديّة في بجاية، وغير الشرعي العلاجي، في عصور الانحطاط الحضاري والفكري، أين عرفت تزايد التدّاوي والمعالجة بالرقية، وهي ممارسات ارتبطت بالوضعيّة السوسيو_اقتصاديّة المتدهورة، في وقت الأزمات. كما ارتبطت بالجانب السياسي الذي ميزه التواجد التركي في الجزائر في عهوده الأخيرة، أين مارس أنواع الاضطهاد والتفقير والتجهيل.

---

[2] الغزالي، محمد، ليس من الإسلام، دار العلم، دمشق، 1999، ص 181.

[3] Balandier, George, Anthropologie politique, P.U.F.Paris, 1967, p.131.

ثم جاء الاستعمار الفرنسي مع بداية القرن التاسع عشر(1830)، فعمل منذ السنوات الأولى لدخوله، على استثمار وتشجيع الأفكار والممارسات، المتنافيّة مع الأبعاد الاعتقاديّة، التي يدعو إليها الدّين الإسلامي. حيث ثمّنت انحرافات الزوايا ورموزها وشيوخ الطريقة. وكانت بدّايتهم مع المجتمع الريفي، بحكم التركيبة الفكريّة، ثمّ محاربة الزوايا التي كانت تدعوا إلى الإسلام الصحيح، والتحرّر من قيود الاستعمار وتشجيع الزوايا وأصحاب الطريقة،[1] الذين كانوا يدعون إلى أنّ الاستعمار قضاء الله وقدره، ومحاربة الاستعمار هي محاربة لقضاء الله وقدره، أي محاربة الله. وهي من صميم القابلية للاستعمار، حسب تعبير المفكر الجزائري "مالك، بن نبي"[*] والتي جعلها الفكرة المحوريّة في نسق تحليلاته، من خلال مجموعة الكتب التي خصّها لتحليل دور الأبعاد الحضارية في تخلف المجتمعات الإسلامية، والتي عنونها ب "مشكلات الحضارة".

لقد عرف المجتمع الجزائري في هذه الحقبة من تاريخه، ظاهرة تقديس "المرابط" كإنسان له قدرات خارقة بإمكانه أن يضر وينفع، أو يمرض ويشفي، فلذلك يتوسل ويتضرع ببركتهم إلى الله تعالى.

وهنا نتوقف عند ما ذكرناه آنفا بالنسبة للمجتمعات الإسلامية، حيث عرف المجتمع الجزائري على غرار ظاهرة التوسط بالأولياء والصالحين (المرابطين)، ممارسة الرقية بمفهومها العلاجي غير شرعي. ويؤكد "إيفان توران" Turin) (Yvonne: على أنّ انتشارهم(المرابطين) كان أكثر في قلب منطقة القبائل[1]. كما أوكلت مهمة المعالجة بالرقية، إلى أصحاب الطريقة (الطلبة)، بعد أن يتحصل الواحد منهم على الإجازة من الزاوية التي حفظ القرآن فيها، يوقع فيها مجموعة من شيوخه ومحتواها هو: "السماح للطالب بممارسة الرقى والطلاسم، لمعالجة الأوجاع الجسدية وكل أشكال الألم، ويخول له إرقاء الممسوسين بالجنّ."[2]

كما كانوا يعتمدون أحيانا على الطب النووي، الذي كانوا يخلطونه بالخرافات، فالأطباء الشعبيون كانوا يتخلصون من الحمى عن طريق كتابة ألفاظ: كروم خروم وحماته على ثلاثة أنوية، ثم يحرق ويشم المريض دخانها. كما يستطيع الطبيب الشعبي: (الطالب، الشيخ) كتابة آية قرآنية على ورقة...ثم يعلقها المريض على رقبته[3].

واستعمل هؤلاء أيضا طريقة "العزيمة" كما يروي ذلك "مبارك الميلي" ويفسر معناها: "أنّ القارئ يقرأ على من يظن أن به مسّا من الجنّ، سورة الجنّ في

---

[1] نسيب، محمد، زوايا العلم والإيمان، في الجزائر، دار الفكر الجزائ، 1990، ص81.

[*] أنظر على الخصوص كتابي: **شروط النهضة، ومشكلة الثقافة.**

[1] Yvonne Turi , les affrontements culturelles dans l'Algérie coloniale , écoles médecins , religion , 1830-1880 ENAL , Alger , 1983, p.11.

[2] Ouitis , Aissa , Possession , magie et prophétie en Algérie , ARCANTERES édition , paris , 1998 , p .158.

[3] سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، مكتبة النهضة، الجزائر، ص، 187.

غالب الأحيان، وقد تكون بيده فتيلة قد أحرق رأسها، يكوي بها رأس المصاب."[4] وما يدل على وجود هذه الطريقة بهذا المعنى، البيت الشعري من قصيدة "اللهب المقدس" لشاعر الثورة الجزائرية "مفدي زكريا":

والنّار في مسّ الجنون عزيمة
يصلّى بها
المستعمر المتكبر[5]

ولهذا انتشرت أضرحة الأولياء الصالحين انتشارا واسعا في مختلف مناطق البلاد وخاصة في الجهة الغربية، وهذا راجع إلى نقص عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في هذه المنطقة مقارنة بالمناطق الأخرى، والتي قامت بمهمة محاربة الفكر الطرقي وأصحاب الطريقة، ونشر المفاهيم الصحيحة للإسلام، فمثلا هناك: سيدي عبد الرحمن في عاصمة البلاد، وسيدي الهواري في وهران، وسيدي راشد في قسنطينة، وسيدي لخضر في مستغانم، وسيدي بومدين في تلمسان، وسيدي الخير في سطيف....

غير أنّ هناك فكرة مهمة كانت تعتبر من أسباب تحول طريقة الرقية إلى المفهوم الثاني (العلاجي) وتجذّره في ممارسات الأفراد، هي أنّ تأصيل الطب الشعبي في المجتمع الجزائري، مرتبط إلى حد بعيد بفكرة مقاطعة أفراده لكل ما هو فرنسي دخيل، خاصة ما تعلق بالصحة والتعليم والعائلة. تقول "إيفان توران" (Yvonne Turin) في كتابها (Les affrontements culturels dans l'Algérie coloniale): " الأهالي الجزائرين كانوا يرفضون كل ما يأتي أو يقترح من طرف الفرنسيين، خاصة في مجال الصحة والتعليم والعائلة، أين يمثلون مجتمعا منغلقا على ذاته"[3]. غير أنّ هذا الانغلاق ما كان ليكون بالشكل الذي ذكرته "ايفان توران" لو لا التصريحات العنيفة التي صدرت عن شخصيات سياسية ودينية فرنسية، خاصة تلك التي هدّدت الجزائريين في هويتهم. حيث أحسوا (الجزائريون) بأنّ ثقافتهم المحلية (خاصة ما تعلق منها بالدّين) في خطر، وأنّ أبناءهم في خطر، فأصدر مثلا أعيّان مدينة الجزائر بيانا، عبروا فيه عن رفضهم لكل أشكال الاستلاب الثقافي، وبأنّهم مستعدون أن يضحوا بأبنائهم ويرونهم يموتون الواحد تلو الآخر، على أن يرونهم يتركون دّينهم ويتمسحون."[1]

فازداد الاعتقاد بقدرات الأولياء الصالحين، وطلب الشفاء من الطلبة وشيوخ الطريقة الذين يعتقدون أنّ الأمراض النفسية والروحية تعالج بالحرز والحجابة والعزيمة، بل يذكر المفكر "مالك بن نبي" أنّ المعمّرين الأوربيين كانوا متأثرين بالرقى السحرية، وإزالة العقد بواسطة الحروز والتراقي والسحر، خاصة النسوة العازبات في منطقة تبسة حيث يقول: "...أمّا الشيخ صادق بن خليل فلا يزال

---

[4] الميلي، مبارك، رسالة الشرك ومظاهره، الجزائر، 19.

[5] مفدي، زكريا، اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1991، ص17.

[3] Turin ,Yvonne op. cit , p.64.

[1] العسلي، بسام، عبد الحميد بن باديس وقاعدة الثورة، دار النفائس، ط 1، بيروت، 1982، ص 41.

يصنع الحروز والتراقي للفتيات الأوربيات الباحثات والراغبات في الزواج."[2]

غير أنّ الثقة التي كان يحضى بها (المرابطين)، تقلصت مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي حاربت الزوايا التي كانت موالية للاستعمار الفرنسي، خصوصا في فترة الثورة الجزائرية (1954–1962) ويرجع ذلك إلى أفكارهم التي تنافي مبدأ الثورة، وتتوافق مع نظرة المستعمر بعدما تبنى المجتمع فكرة الثورة.

وهذا بالضبط ما ذهب إليه الأستاذ "عبد الغني، مغربي" حين قال: "...لأنّ رجال المرابطين وفي كثير من الأحيان، قد أداروا ظهورهم للمقاومة المستلهمة من خاصية الإسلام الجزائري، خاصة عند تعاملهم مع المستعمر، فقد ضيعوا كل مصداقية في الأحياء أين بدأت قوة اجتماعية وطنية في الظهور."[3]

ويؤكد على ذلك عندما ثمن كلام "عبد الحميد بن باديس" في قوله: إنّ ابن باديس لم يكن مخطئا في حق المرابطين سنة 1937، حينما وصفهم: بأنّهم "حيوانات أليفة للاستعمار، فهم اليد التي تنفذ أوامره الجائزة والجسر الذي يعبرون من خلاله، فهم لا يترددون في مخالفة الله ويتظاهرون باعتزازهم تجاه الشعب وببغضهم للمستعمرين والمسؤولين الإداريين والعملاء".[4]

استمر مستوى الإقبال على الرقية بعد الاستقلال، بنفس الوتيرة التي كانت في فترة الثورة الجزائرية، واستمرت حتى بداية السبعينات، أين انتشر عدّد "الطلبة" و"العرافين" الذين تكفلوا بمهمة الرقية. إلى درجة أنّ عددا معتبرا منهم صار لهم شهرة متميزة، ولعلّ أكثرهم شهرة: أحد العرافين، الذي كان يقيم في مدينة بومدفع بنواحي مدينة البليدة. حيث كان الناس يأتون إليه من كل مناطق الوطن، والذي أشيع عليه أنّه صار من البورجوازيين في عهد النظام الاشتراكي. حتى أنّ التلفزيون الجزائرية آنذاك أنتج فيلما تلفزيونيا للمخرج "محمد بوزيدي،"[1]عن هذا العرّاف والذي بيّن أنّ ممارسته كانت عبارة عن شعوذة ابتز بها أموال الناس، نتيجة جهلهم.

في سنوات الثمانينات ازدادت هذه الممارسات انتشارا بين كافة الشرائح الاجتماعية، خاصة بين الشباب. فانتشرت "العرافات" أو"القزانات" بين طرق وأرصفة مختلف الأحياء. فصار مظهر العرّافة وهي ممسكة بيد شاب أو فتاة، حتى تنبئهما بحظهما من خلال قراءة الكف، ظاهرة اجتماعية بأتم معنى الكلمة.

والملاحظ أنّه رغم انتشار هذه الأنواع من الرقى، فإنّه ينظر إلى طالبيها نظرة سلبية، تصنّفهم ضمن

---

[2] بن نبي، مالك، شاهد القرن: الطب، دار الفكر، بيروت، (ب، ت)، ص 135.

[3] Magherbi , Abdelghani, culture et personnalité algérienne de Massinissa à nos jours , E.N.A.L ,O.P.U , Alger , 1986, p.107.

[1] Ibid ,p .107.

[2] فيلم جزائري، إنتاج التلفزة الجزائرية ، للمخرج محمد بوزيدي.

إحدى الخانتين: إمّا مشعوذ دجّال، أو مصاب بمسّ من الجنّ (مجنون) وهذا حتى في حالات المعالجة الحقيقية.

وخوفا من هذه النظرة التي تعني في بعدها الاجتماعي (المقاطعة الاجتماعية)، خاصة بالنسبة للفتاة العازبة، فتجدها إذا أرادت أن تذهب إلى الطالب أو المرابط أو العرّاف (تسترقي)، تنتقل إلى منطقة بعيدة عن مقر إقامتها، لأنّ انتشار خبر ذهابها إلى هؤلاء بين أفراد المنطقة، يعني في أغلب الأحيان بقاءها دون زواج(عانس).

تتميز الفترة الممتدة من منتصف الثمانينات إلى اليوم، بانتشار ظاهرة التدّين بين أفراد المجتمع الجزائري، أو ما اصطلح عليها بالصحوة الإسلامية، فقد انتشر إنكار الخطاب الدّيني خاصة التيار السلفي منه، لأنواع الرقى التي كانت منتشرة، واعتبرها رقى غير مشروعة دّينا. لأنّ مصدرها ليس الأدعيّة المستخرجة من القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية. وهذا يعني بأنّها بدعة وشعوذة ودجل، استطاع هذا التيار ورجالاته الذين درسوا في المملكة العربية السعودية (مركز هذا التيار الدّيني)، تقديم البديل الذي هو الرقية الشرعية، وحدّد كما ذكرنا من قبل مضمونها وشكلها، فانتشرت بين الناس مجموعة كبيرة من الكتب والأشرطة السمعية والبصريّة التي تشرح طريقة الرقية الشرعية، وتبيّن الطرق غير الشرعية، وتحذر منها.

غير أنّ هذه الدعايّة التي عرفتها الرقية الشرعية، قد عرفت نوع من الغلو، حيث لم تفرق بين الرقية الوقائية الواجبة في حق الفرد المسلم باعتبارها أدعية وأذكار تعنى بأبسط أفعاله، والتي تضمن للفرد السلامة النفسية والعقليّة التي تساعده على التكيف مع التغيرات المجتمعيّة، التي يتعرض لها وبالتالي يتجنب اللجوء إلى طلب الرقية (الاسترقاء)، إلاّ في الحالات الضرورية كما كانت عليه الأجيال الأولى للمجتمع الإسلامي.

ولذلك فإنّ مظاهر طلب الرقية (الاسترقاء) أصبحت ظاهرة اجتماعية، حيث زاد الإقبال عليها بين كل فئات المجتمع الجزائري.

إنّك تجد صفوف طالبيها أمام منازل الرقاة، حاملين دلاء الماء (جمع دلو) من أجل رقيتها، أو أمام أبواب المساجد ينتظرون انتهاء الصلاة، حتى يتسنى لهم الظفر برقية في الماء أو زيت الزيتون أو العسل، من طرف إمام المسجد أو أحد الممارسين لهذه الوظيفة، أو أن يطلب منه الذهاب معه إلى بيته، حتى يرقي له البيت كمجال مبني أو أحد أفراد أسرته. كما تجدهم أمام محلات تجاريّة مخصصة للرقية، ينتظرون دورهم لدخول للراقي.

قائمة المراجع:

1. ابن الحسن، عبد الرحمن، فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، وكالة الطباعة والنشر، الرياض، 1413هـ.

2. الجندي، فتحي ابن فتحي، المعالجة بالرقى والقرآن، دار الهدى، الجزائر، 1992.

3. الجوهري، محمد، الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية، الجزء 1: دليل العمل الميداني لجامعي التراث الشعبي، دار المعرف الجامعية، الإسكندرية، 1981.

4. الحنبلي أبو بكر، بن محمد، علاج الأمور السحرية من الشريعة الإسلامية، دار النهضة، الجزائر ،1990.
5. ريمون بودون، بوريكو فرنسوا، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تر: سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
6. شاك، مصطفى سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، جامعة الكويت، الكويت، ط 1،1981.
7. عاطف وصفي، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار المعارف، القاهرة، 1977.
8. العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج10، دار المعرفة، بيروت 19.
9. الفار، على محمد، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، 1978.
10. مالكا، الياد، العوائد الإسرائيلية العتيقة، ثانوية الكتاب، الرباط، 1962.
11. مالينوفسكي، برنسلاو، السحر والدين عند الشعوب البدائية، تر: فيليب عطية، الهيئة المصرية للكتاب، مصر 1995.
12. النووي يحي، صحيح مسلم، باب الرقية، دار إحياء، التراث العربي، ط 1، المجلد 7 بيروت، (ب، ت).
13. Akoun. André et autres, Encyclopédie de sociologie, le présent en question, Larousse paris, 1975.
14. Eliade, Mercea, Initiations rites, sociétés, naissance mystique, essai sur quelques types d'initiations, éd : Gallimard, paris, 1976.
15. Eliade, Mercea, le chamanisme et les techniques archaïques de l'extase, Payot, paris, 1959.
16. Encyclopédie Universalis, p12, France OPTIC.
17. Encyclopédie universalis, 2000, cabie robert, « Exorcisme », CD-ROM Universalis Version4.0
18. Encyclopédie Universalise, France, vol 4, paris, 1969.
19. Le Neuf Nicolas et Vernette jean, Exorciste aujourd hui, éd : SALVATOR, paris ,1991.
20. Maatouk, Frederick, Dictionary of sociology; English, frensh, Arabic, academia, Beirut, Lebanon, 1993.